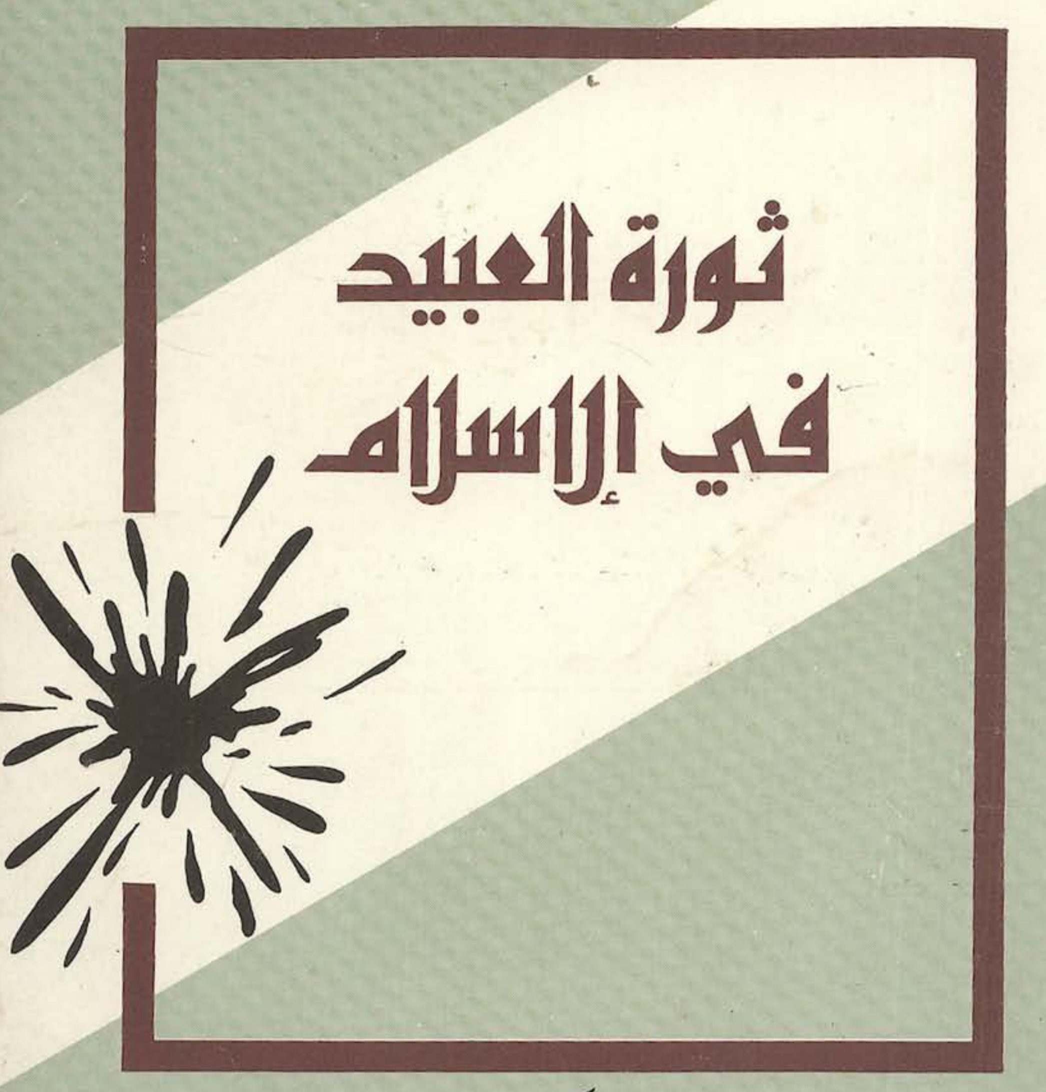
أحمد علبي

ثورة العبيد في الإسلام



دار الآداب
بيروت

ثورة العبيد في الإسلام

الطبعة الأولى

١٩٨٥

أحمد علبي

ثورة العبيد في الإسلام

دار الآداب
بيروت

إلى ذكرى أستاذي وصديقي

رئيف خوري

(١٩١٣ - ١٩٦٧)

الإنسان الكبير والأديب المفكر العربي الديمقراطي ، وهـو الـذي كلما عصفت بنا الليـالي نفتقد ذهنـه النـيّر وجبهتـه العالية والتزامه الرائع وحضوره البهيّ .

القسم الأول

عبيد وثورات وطغيان

الفصل الأول

خواطر حول «ثورة الزَّنج» وصاحبهم «عليّ بن محمد»

مرة ثانية أعود إلى التعاطي مع « الزَّنج » في كتاب مستقل ، وقد طال الزمن منذ أصدرتُ كتابيَ القديم « ثورة الزَّنج ، وقائدها عليّ بن محمد » (بيروت ١٩٦١) . وإذا كان بعض الناس وفيّاً للغرام أو الصداقة، فأنا إلى ذلك ـ وعلى حد تعبير أبي الطيّب ـ « خُلِقْتُ أَلوفاً » للموضوعات العلمية التي أكببتُ عليها ذات يوم في حياتي الفكرية . ومذ اهتممت بالزَّنج وصاحبهم عليّ ابن محمد ظللت متابعاً للموضوع ، دارساً له[1]، و « أتصيّد » ما يصدر حوله من دراسات في المجلات ، على نَدْرتها ، ومن كتب وأطروحات في أصقاع الدنيا . وهكذا فإنّ بين المراجع التي في حَوْزتي عن العبيد الزَّنج إبّان العصر العباسي ، أعمالاً بالألمانية والروسية والفارسية ، وإن لم أكن على دراية بهذه اللغات فإني أعوّل الاستفادة منها بالواسطة، والأصدقاء ولله الحمد كُثر . أما الألمانية فإني أُعلِّلُ النفس بدراستها في المستقبل ، وبخاصة أن زملائي من المستشرقين الألمان يحثّني بعضهم ، عن مودّة ، على تعلّمها ويستغرب جهلي بها ! وهم على حق ، إذ كما قال لي ذات مرة المستشرق الفرنسي مكسيم

(١) راجع كتابنا : الإسلام والمنهج التاريخي ، القسم الأول : ثورة الزَّنج في العصر العباسي ، ص١١ ـ ٧١ .

رودنسون ، فمن الشائع على سبيل الطُّرْفة أنّ مَنْ أراد دراسة اللاتينية فعليه بالألمانية ! إذ إن لغة « غوته » استوعبت التراث الإنساني ، والحضارة الإسلامية مثلاً مَدينة للألمان بجهد فريد .

ونحن إذ ندرس « عبيد » الأمس فلنا فيهم درس وعِبْرة ، إذ التاريخ البشري لا يخرج من أن يكون صراعاً بين العبيد والسّادة ، وإن اختلفت الألوان والظروف والبيئات والمسمّيات . والعبيد هم سَمَاد الأرض في كل زمان وحول كل مكان ، ولولا ذلك لما كانت صرخة « پوشكين » الثورية :

آه . . . أرجفوا أيها الطغاة
ولتصطكَّ مفاصلكم
وأنتم ،
أيها العبيد ، أرهفوا مسامعكم
تسلّحوا بكل ما لديكم من شجاعة
وهُبّوا !

نحن ندرس عبيداً قد هبّوا وجلجلت حركتهم العاصفة في العصر العباسي الزاهي ، ولم تكن ثورتهم مجرد « تصحيف » لغوي ! فقد ورد لدى حمزة الأصبهاني (ت ٣٦٠هـ) ، وهو يخاطب على ما يبدو قارئاً أو سائلاً ، على طريقة الجاحظ : « وزعمتَ أن المحدّثين بالبصرة غبروا زماناً يروون أن عليّاً (رضي الله عنه) قال : ألا إنّ خراب بصرتكم هذه يكون بالريح . فما أقلعوا عن هذا التصحيف إلا بعد مائتي سنة عند معاينتهم خرابها بالزّنج »[٢] . وبين « الريح » و « الزّنج » صلة قُربى لو تبصّروا وتمعّنوا ، إنها ريح الثورة ينفخ فيها جياع زَنْج كان من نكد الدهر عليهم أنهم يحملون في بَشَرتهم سواد ليل حالك

(٢) حمزة الأصبهاني : التنبيه على حدوث التصحيف ، ص٢ .

ويساقون إلى العمل في تجفيف المستنقعات واستصلاح الأرض في منطقة البصرة لقاء طعام ينفخ البطن ولا يُشبع من مَسْغبة . ولقد تكاثرت أعداد هؤلاء الزّنج في القرن الثالث الهجري ، بحكم الحاجة إلى اليد العاملة شبه المجانية للعمل في الأرض ، ولكن وجودهم في العراق سابق على هذا التاريخ ، كما أن عهدهم بالتمرد على السلطة عرف محطتين سابقتين عابرتين .

هبتان للزنج سابقتان

ففي أواخر أيام مُصعب بن الزُّبير بالعراق اجتمع بِفُرات البصرة جمع من الزّنج وشرعوا يتجمهرون ، فانبرى والي البصرة ، خالد بن عبدالله بن خالد ، إليهم . « فجمع لهم جيشاً ، فلما بلغهم ذلك تفرقوا ، وأخذ بعضهم فقتلهم وصلبهم »[٣]. وهكذا فنحن لم نخطىء بتسمية الزّنج « صُلبان التاريخ الإسلامي »[٤]، إذ إن هذه العملية شرعت منذ شرارتهم الأولى . كان ذلك في سنة ٧١هـ ، وكانوا ما زالوا قلّة ، لكن نارهم كان هناك منهم ، على ما يبدو ، من يعسعس فيها محرّكاً ، لتشتعل مجدداً ضِراماً يُحرق .

وعلى هذا فقد عادوا إلى التمرد والاحتجاج ، واجتمع منهم هذه المرة خلق كثير بالفرات ، وذلك سنة ٧٦ هـ عند ولاية الحجّاج على العراق ، وقد جعلوا على رأسهم رجلاً من بين ظهرانَيْهم اسمه رياح . هل من علاقة بين « الريح » التي تقدّم ذكرها على أنها تصحيف ، و « رياح » ؟ ! هكذا ورد اسمه لدى ابن خَلْدون (ت ٨٠٨هـ) ، في حين ذكر ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) أن اسمه « رباح » . تصحيف آخر ؟ وهل التاريخ ، خصوصاً عندما يكون رسمياً ،

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، م٤ ص٣٨٨ .
(٤) راجع دراستنا : « الزّنج ، صُلبان التاريخ الإسلامي » ، مجلة « العربي » س٢١ ، ع ٢٤٢ (كانون الثاني ١٩٧٩) ، ص١٥٥ ـ ١٦١ .

سوى كلام يداخله تصحيف كبير؟! وبالتالي فنحن نحتاج إلى الحِيْطة والحذر، وليس عبثاً القول إننا في حاجة ماسّة إلى إعادة كتابة تاريخنا، ولكن هذه المرة في ضوء المنهج العلمي والمصادر الموثوقة الخاضعة للنظرة النقدية، دون إغفال أيّ منها. هي عملية إعادة اكتشاف ومحاولة نفض غبار التلفيقات وعَمَاية التضليل، وما أكثره، إذ الإعلام ليس صناعة ابنة اليوم، وإنِ اتّسع مداها إلى غير حدّ وتنوّعت فنونها، بيد أن الجوهر واحد والإيديولوجيا المهيمنة تعثر دائماً على ضالّتها الملائمة.

نعود إلى رياح أو رباح الذي كان يلقَّب شير زنجي، أي أسد الزَّنج. فلما كان من «إفساد» الزَّنج، وكان الحجاج قد فرغ من تمرد ابن الجارود[٥]، وجّه أوامره الصارمة، كما هو حاله دائماً، إلى زياد بن عمرو الذي كان على شُرطة البصرة أن يقمع التمرد. فأرسل زياد ابنه حَفْصاً على جيش لقتال الزَّنج، فكان أن قتلوه وهزموا جيشه. فأرسل جيشاً آخر «فهزم الزَّنج وأبادهم»[٦].

ثورة الزنج الكبرى

بيد أنه في القرن الثالث الهجري جلب تجار البصرة الزَّنجَ بالآلاف، إذ

(٥) تكاتف الناس مع عبدالله بن الجارود وبايعوه سراً على إخراج الحجّاج من العراق والكتابة إلى عبدالملك بن مروان بتولية غيره، وذلك لأنه عاد عن الزيادة التي أجازها لهم عبدالملك نفسه وهي مائة مائة في العطاء! وقد أظهروا أمرهم في ربيع الآخر سنة ٧٦هـ وزحفوا على الحجّاج، لكن تغلّب عليهم بعدها وقُتل ابن الجارود بسهم غَرْب واحتُزّ رأسه مع ثمانية عشر رجلاً من وجوه أصحابه (ابن الأثير: م٤ ص٣٨١ ـ ٣٨٥). وبناء على هذا فإن تمرد الزَّنج الثاني حصل سنة ٧٦هـ، وليس ٧٥هـ كما هو شائع في المراجع، وذلك بسبب وهمٍ مردّه أن ابن الأثير جاء في تاريخه على حادثة تمرد الزَّنج هذه ضمن حوادث سنة ٧٥هـ!

(٦) ابن خَلْدون: كتاب العِبَر وديوان المبتدا والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، م٣ ص٩٨.

وظّف هؤلاء التجار أموالهم الطائلة في استصلاح الأراضي لتكون ممهَّدة للزراعة بعد استخراج الملح منها وبيعه . فعثر الزَّنج سنة ٢٥٥هـ على عليّ بن محمد ، أو عثر هو عليهم لا فرق ، « فلم يلبث أن خرج بالبصرة واستغوى السودان والزبّالين[٧] والعبيد ، فصار أمره إلى ما صار »[٨] . وليس يعنينا ههنا حَوْلَ الكلام حول شخصية « صاحب الزَّنج » ومراميه ، يكفي ، وهو الأبيض ، أنه قد أخلص لقضية العبيد السُّود الذين قادهم فناضل دونهم حتى الرمق الأخير . « فقُتِل وهو مجاهد على حاله ، غير مستسلم ولا معطٍ بيده ، وكان قد بُذل له الأمان مراراً فأباه »[٩] . لقد قُتل صاحب الزَّنج وله من العمر ثمانٍ وأربعون سنة[١٠] ، أي في شَرْخ الرجولة والنضج .

ولقد أرّق عليّ بن محمد الخلافة العباسية أيّ أَرَقٍ ، فهو بجيوشه كاد يهدد بغداد نفسها ، وظل مستمراً بثورته حتى سنة ٢٧٠هـ ، أي قُرابة خمسة عشر عاماً . وبذلت السلطة العباسية مالاً عظيماً لتجهيز الجيوش ، بغية الإجهاز عليه . وعندما خرج الموفّق ، أخو الخليفة المعتمِد ، والحاكم الفعلي للخلافة عهدذاك ، بجيش عرمرم لمقارعة صاحب الزَّنج ، « حكى مشايخ أهل بغداد الذين شاهدوا الجيوش أنهم ما رأَوْا ولا سمعوا بمثل ذلك الجيش كثرة وقوة وآلة وسلاحاً ، وتبعه خلق عظيم من سُوْقَة بغداد »[١١] .

ولهذا فإن مقتل صاحب الزَّنج بعد جهاد جهيد كان بمثابة « البشير » ، كما ورد لدى الطَّبَري (ت ٣١٠هـ) الذي هو بمنزلة المؤرخ الرسمي لثورة الزَّنج :

(٧) المقصود بالزبّالين الذين يزبِّلون الأرض أي يسمّدونها بالزِّبل .
(٨) ابن العِماد : شَذَرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب ، ج٢ ص١٥٦ .
(٩) مؤلف مجهول : العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، ج٤ ، ق ١ ، ص٥٧ .
(١٠) الذهبي : سِيَر أعلام النبلاء ، ج١٣ ص١٣٠ .
(١١) مؤلف مجهول : ج٤ ، ق ١ ، ص٢٣ .

جاء « البشير بقتل الفاجر » إلى الموفّق ، ثم وافاه أحدهم يحمل كفّاً يزعم أنها كفّ صاحب الزَّنج . « ثم أتاه غلامٌ من أصحاب لؤلؤ يركض على فرس ، ومعه رأس الخبيث » . « وأمر الموفّق برفع رأس الفاجر على قناة ونصبه بين يديه »[١٢]. ولا يدهشنّ قارىء بأمثال هذين النعتين لقائد ثورة الزَّنج : الفاجر ، الخبيث . فكل متمرد ، وإن كان الحق ملء بُرْديه والعدالة سِرْباله وفيض يديه ، هو في نظر السلطة القائمة قمينٌ بكل النعوت ابتداء من الخيانة حتى الفجور والإلحاد ، لأن « الإيمان » يغدو عندها حَكَراً على السلطان أو أمير المؤمنين ، أيّاً كانت سيرته ، ومهما كان ممشاه بعيداً عن جادة الإسلام الذي دعا إلى العلم والعدالة الاجتماعية ومكارم الأخلاق فاعتنقه الملايين .

عودة إلى الرق

عقب مقتل صاحب الزَّنج تناثرت الثورة واتّبع الموفّق سياسة الإغراء باذلاً الأمان ، فكان من الطبيعي أن يستسلم آلاف الزَّنج قادة ورجالاً بعد أن سقط قائدهم العنيدَ المقدام . « وانقطعت منهم قطعة زهاء ألف زنجي مالوا نحو البر ، فمات أكثرهم عطشاً ، فظفر الأعراب بِمَنْ سلم منهم واسترقّوهم »[١٣] ! عودة إلى الرِّقّ ، هذا مآل الثورة المدحورة التي لم يكن الزمن مؤاتياً لها ولا نصيراً . فمقولة « الظروف الموضوعية » لا يمكن تجاوزها بِيُسْر ، وإذا حدث ذلك فيكون على نحو مؤقّت ما دامت الثورة في بُحْبوحة من القوة والمنعة واستثمار الظروف السلبية لدى الخصم الذي كانت الحقبة التاريخية في صالحه .

وكان بين المستسلمين أو المأسورين ، وقد انتكست ثورة الزَّنج ، ابنُ

(١٢) الطَّبَري : تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف بتاريخ الطَّبَري ، ج٩ ، ص٦٥٩ و ٦٦٠ .
(١٣) الطبري : ج٩ ص٦٦٠ و ٦٦١ .

صاحبهم ، محمد ، وكان لقبه أنكلاي ، ومعناه بالزنجية ابن الملك . وكان هناك أيضاً عليّ بن أبان المهلّبي ، وسليمان بن جامع ، وإبراهيم بن جعفر الهمذاني ، ونادر الأسود . فحُملوا في الحديد إلى بغداد حيث حُبسوا(١٤).

وذلك أنه لم يكن مقدّراً لثورة الزَّنج ، في المنظور التاريخي ، أن تنتصر وتتوطد بشكل ناجز ، ونمط الإنتاج المهيمن لذاك العصر « آسيويّ » إذا شئت أو « إقطاعيّ » . ولهذا فإن مأخذ بعض الدارسين على صاحب الزَّنج أنه قام لإلغاء الرقّ ، ثم إذا به يملّك القادة بين صفوفه كما يَعِدُ الزَّنج بذلك ، هذا المأخذ قد يكون في غير موضعه عند التدقيق ، لأن عليّ بن محمد كان يغترف من مفاهيم عصره المستمدة من نمط الإنتاج السائد ، والتي لم يكن لها عموماً أن تذهب إلى حد المطالبة بإلغاء المُلكية نفسها ووضع حد نهائي لعملية الاسترقاق . وخصوصاً أن الإسلام ذاته ، والناس قريبو عهد بالدعوة وتاريخها ، لم يلغِ الرقّ كليّة وإنما دعا إلى تحسين شروطه على نحو كبير بما يتفق والكرامة البشرية ووجوب صيانتها .

الجدل التاريخي يظل مفتوحا

ليس هناك من ثورة خارج التاريخ ، وعندما أعلنت الثورة الفرنسية على سبيل المثال مبادئها الشهيرة ما كان لهذه المبادىء أن تأخذ طريقها إلى العلن والشيوع والتبنّي في عهد النهضة ، لأن شكل الإنتاج النهضويّ لم يكن بعدُ قابلاً لعلاقات إنتاج شرعت في النضج التدريجي مع صعود الصناعة اليدوية واكتشاف الآلة البخارية ونموّ المدن « البور » وتكاثر سكانها الذين أضحَوْا يُدْعَوْن « البورجوازية » . وعندما نجحت الثورة الفرنسية على الإقطاعية صيّرت الطبقة العاملة مع كرور الأيام « عبيداً » لها ، مع أنها استعانت بالعمال

(١٤) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، ج٨ ص٢١٤ ــ ابن خلدون : م٤ ص٤٣ .

وانتصرت بفضلهم . لكن لكل طبقة حاكمة عِبْدانها ، فكما رافقت القِنانة مرحلة العبودية ، وربما الإقطاعية أحياناً ، وذلك إبّان الاقتصاد القائم على الإنتاج الزراعي ، فإن استثمار الطبقة العاملة هو العلامة الفارقة في المرحلة البورجوازية التي أقامت مداميكها على هيمنة الإنتاج الصناعي وقيادته لفروع الاقتصاد . وماذا عن المجتمع الاشتراكي ؟ قد يسأل سائل . هل يتوقف الصراع ؟ وهل تذوب التناقضات ، وهل يُقْفَل الجدل التاريخي ؟ هنا يغدو الخطر أدهى ربما ، لأن المجتمع قد يتشكل في طبقة شبه واحدة ، ولكنه يكون عُرضة لتناحر في بُنيته العليا . وهل أتاك حديث الديمقراطية الغائبة في الغالب ، والبيروقراطية المتحكمة في الرقاب ، والخوف من الكلام ، والحرية المأمولة التي فرّخت نقيضها ! التجربة التاريخية للاشتراكية ما زالت على المدى ابنة البارحة ، إذ ما شأن ستين أو سبعين سنة في عمر التجارب البشرية الفاصلة ؟ هذا تفسير وليس تبريراً ، ثم نحن لسنا قضاة وإنما أبناء مَعْجَن واحد . أضف إلى ذلك أن التطبيق الاشتراكي عملية شاقة عبقرية ، لأنها تتطلب إعادة اكتشاف الماركسية في خصوصيتها ومحليتها . ويبقى الحديث طويلاً وذا شجون ، ولكنّ نجمة بعيدة تضيء الأفق وتومىء .

لم تكن ثورة الزَّنج حادثاً عابراً في التاريخ الإسلامي ، وإنما هي وَفْق ما سرده بعض المؤرخين تنبىء عن خطورة وتُقرن بحركات أخرى جليلة شأن البابكيّة والقرامطة . ولسنا الآن في معرض مناقشة صحة هذا الرأي الصادر عن « مؤلف مجهول » يرجَّح أنه من رجال القرن الخامس الهجري : « وقيل إنه لم يكن في الإسلام حادث أضرّ بالإسلام والمسلمين من ظهور بابك الخُرّمي بتلك المقالة التي تفرّع عنها القرامطة والباطنية إلى اليوم ، ومن ظهور الوَرْزَنيني[١٥] المعروف بعلويّ الزَّنج ، على أنه أيضاً إلى مقالة بابك الخرّمي

(١٥) الوَرْزَنيني نسبة إلى وَرْزَنين ، القرية التي أبصر عليّ بن محمد فيها النور ، وهي « من أعيان =

أسند أمره »[١٦] .

بيد أن ثورة الزَّنج لم تنطفىء جمرتها الملتهبة تماماً ومن غير رجعة ، إذ بعد سنتين من مقتل صاحب الزَّنج ، أي في شوّال من سنة ٢٧٢هـ ، « وفيها تحركت الزَّنج بواسط ، وصاحوا : أنكلاي ، يا منصور » ! ويبدو أن النداء المعبّر أحدث القُشعريرة في جسد الموفَّق ، خصوصاً أنه كان عهدذاك في واسط . وكان ، كما سبق وذكرنا ، قد وضع في المُطْبِق ، وهو السجن تحت الأرض ، ابن صاحب الزَّنج وبعض قادة الثورة الكبار المأسورين أو المستسلمين . وأمر الموفّق بقتلهم ، فأُخرجوا وذُبحوا وطُرحت أبدانهم في البالوعة ، وأُرسلت رؤوسهم إلى الموفّق بواسط فنصبها هناك . ثم أُخرجت ، بأمر من الموفّق ، جثث قتلى بغداد من البالوعة ، وكانت قد انتفخت وفاحت روائحها وتقشّرت منها الجلود ، فصُلب اثنان من هؤلاء القواد على الجانب الشرقي من الجسر في بغداد والثلاثة الآخرون على الجانب الغربي[١٧] !

= قرى الرَّيّ » (ياقوت : معجم البلدان ، م٥ ص٣٧١) . وهذه القرية الفارسيّة هي التي لجأ إليها جَدُّ عليّ بن محمد لأمه ، محمد بن حكيم الأسدي ، وهو كوفيّ كان مناصراً لزيد بن عليّ ابن الحسين الذي خرج على خلافة هشام بن عبدالملك . فلما أخفق زيد وقُتل ، فرّ محمد بن حكيم إلى الرّيّ بفارس والتجأ إلى ورزنين . وهي القرية التي وُلد فيها عليّ بن محمد (صاحب الزَّنج بعدها) وبها نشأ أيضاً (الطبري : ج٩ ص٤١٠ ــ ابن أبي الحديد : ج٨ ص١٢٧) . وهناك ألقاب عدة شاعت عن عليّ بن محمد بالإضافة إلى الوَرْزنيني : عَلَويّ البصرة (والطبري يُعَنْون مطلع أخبار ثورة الزَّنج لسنة ٢٥٥هـ على النحو التالي : خروج أول علويّ بالبصرة ، ج٩ ص٤١٠) ، والبَصْري العَلَوي (كما جاء عند أبي حيّان التوحيدي : البصائر والذخائر ، م٢ ، ج٢ ، ص٥٠٥) ، وعلويّ الزَّنج (كما هو وارد لدى مؤلف مجهول ، ج٤ ، ق١ ، ص١٤ ، ٥٨) ، وصاحب الزَّنج (وهو عنوان ترجمته لدى الصَّفَدي في مخطوطة المتحف البريطاني لكتاب الوافي بالوفيات) ، والخبيث (وهو عنوان ترجمته لدى الذهبي ، ج١٣ ص١٢٩) .

(١٦) العيون والحدائق ، ج٤ ، ق١ ، ص٥٨ .

(١٧) ابن الأثير : م٧ ص٤٢٠ ــ ابن أبي الحديد : ج٨ ص٢١٤ ــ ابن تَغْري بَرْدي : النجوم=

وبعـد ، فقد عثـرنا لـدى أبي حيّان عـلى فقرة نُثبتهـا على شكـل خاتمـة ، متسـائلين في الآن نفسه : وهـل كان لصـاحب الـزَّنـج قبـر ، وأين مكـانـه ؟
« وقُرِىء على قبر البَصْري العَلَوي صاحب الزَّنج :

عليكَ سلامُ اللهِ يا خيرَ منـزلٍ رحلنـا وخلّفنـاكَ غـيرَ ذميمِ
فـإنْ تكنِ الأيامُ أحـدثنَ فُرقَـةً فمن ذا الذي من رَمْيها بسليمِ »[18]

= الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج٣ ص٦٧ .
(١٨) أبو حيّان التوحيدي : البصائر والذخائر ، م٢ ، ج٢ ، ص٥٠٥ .

المصادر والمراجع

١ ـ الطَّبَري (ت ٣١٠هـ)(*): تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف بتاريخ الطبري (١١ جزءاً)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة «ذخائر العرب» (٣٠)، دار المعارف بمصر ٦٠ ـ ١٩٦٩، ١٩٧٧.

٢ ـ حمزة بن الحسن الأصبهاني (ت ٣٦٠هـ): التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق: محمد أسعد طلس، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٨.

٣ ـ أبو حيّان التوحيدي (ت ٤١٤هـ): البصائر والذخائر (مجلدان)، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء، دمشق ١٩٦٤، ١٩٦٦.

٤ ـ مؤلف مجهول (من القرن الخامس الهجري (؟)): العيون والحدائق في أخبار الحقائق (ج٤ (٢٥٦ ـ ٣٥٠هـ)، قسمان)، تحقيق: عمر السّعيدي، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ٧٢ ـ ١٩٧٣.

(*) لم نأخذ في ترتيب المصادر لفصول هذا الكتاب بالنَّسَق الأبجديّ المعمول به عادة، وإنما آثرنا ترتيبها وَفْقَ الأقدميّة الزمنية لما في ذلك من فائدة علمية وعملية.

٥ ــ ياقوت (ت ٦٢٦هـ) : معجم البلدان (٥ مجلدات) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (؟) .

٦ ــ ابن الأثير (ت ٦٣٠) : الكامل في التاريخ (١٣ مجلداً) ، دار صادر ـ دار بيروت ٦٥ ـ ١٩٦٧ .

٧ ــ ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ) : شرح نهج البلاغة (٢٠ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ٥٩ ـ ١٩٦٤ .

٨ ــ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) : سِيَر أعلام النبلاء (١٧ جزءاً حتى تاريخه) ، أشرف على تحقيقه : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ٨١ ـ ١٩٨٣ .

٩ ــ الصَّفَدي (ت ٧٦٤هـ) : الوافي بالوفيات ، ترجمة « صاحب الزَّنج » ، مخطوطة المتحف البريطاني (British Museum, Or. 6587) ورقة ١٤٠ (ب) ـ ١٤٣ (ب) .

١٠ ــ ابن خَلْدون (ت ٨٠٨هـ) : كتاب العِبَر وديوان المبتدا والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون (٧ مجلدات) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ٥٦ ـ ١٩٥٩ .

١١ ــ ابن تَغْري بَرْدي (ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٦ جزءاً) ، سلسلة « تراثنا » ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ٦٣ ـ ١٩٧٢ .

١٢ ــ ابن العِماد (ت ١٠٨٩هـ) : شَذَرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب (٨ أجزاء) ، مكتبة القُدسي ، القاهرة ١٣٥٠هـ .

١٣ ــ أحمد عُلَبي : الإسلام والمنهج التاريخي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٥ .

١٤ ــ أحمد عُلَبي : « الزّنج ، صُلبان التاريخ الإسلامي » ، مجلة « العربي » س٢١ ، ع ٢٤٢ (كانون الثاني ١٩٧٩) ، ص١٥٥ ـ ١٦١ .

الفصل الثاني

الزَّنج صُلْبان التاريخ الإسلامي

كانت الإمبـراطوريـة الإسلاميـة من أواخر الإمبـراطوريـات العظمى التي عرفها الشرق ، وقد لعبت دوراً حيوياً في دفـع عجلة التقدم وفي عمليـة تراكم الإنتاج . وكانت هذه الدولـة العربيـة الكبرى مؤسَّسـة على « الإيـديولـوجية » الإسلامية ، وهي ذات مركزية صلبة أصلاً ، وطابع مطلق وحكم فردي عملياً ، في حين أمست نظرية العدل التي عمل بها جُلّ الخلفاء الأوائل من الراشـدين مسطورة محفوظة في كتب الفقهاء . هذه الإمبراطورية سـرعان مـا انحدرت من « الأوتوقراطية » المدنية الاستبداديـة نحو العسكـرية العشـوائية الـدخيلة ، التي ألحقت ضـرراً باستمـرارية الحكم وانتصبت عـائقاً أحمق دون تـطوره إلى مـداه التاريخي . ففي حين كانت الخلافة منيعة مع المنصور ، عـزيزة مـع الرشيـد ، متحضرة مع المأمون ، أضحت مع المعتصم من غير هوية حضارية واختنقت بجهل المرتزقة من الأتراك وخلافاتهم المزمنة .

كان النفوذ الفارسي في المرحلة الأولى من الخـلافة العبـاسية ، عـلى الرغم من سلبياته السياسية ، مخصاباً ، لأنه يحمل نواة بنّاءة من المعرفة ورصيداً وافراً من التجارب . أما النفوذ التركي الذي أتى به المعتصم ، فقوامه القهـر والفتك والجهـالة ولا شيء غـير ذلك . كـانت بغداد تـرفع عـالياً مشعـل العلم ، أمـا

سامَرّاء ، العاصمة الجديدة ، فامتلأت سماؤها بِحِراب الجيش التركي الـذي ابتكره المعتصم لنفسه زاهياً مكسوّاً بالديباج ، فغدا أشبه بالحرس الإمبراطوري الروماني . كان المأمون يتعاطى الفلسفة ويجادل المعتـزلة ، أمـا المعتصم فهو ، كـما يذكـر ابن الطِّقْـطَقَى في « الفخري في الآداب السلطانيـة » ، « يحمل ألف رطـل ويمشي بها خـطوات » ! وكـان ، عـلى حـد قـول السُّيُـوطي في « تـاريـخ الخلفاء » ، « عُرْياً من العِلـم » !

الطغمة العسكرية التركية وتفجر التناقضات

هذه الطغمة العسكرية التركيـة جعلت « التناقضـات » تستفحل في أروقـة قصور الخلافة العباسية . فقد استبدت بالسلطة الفعلية ، بخاصـة إثر مصـرع المتوكّل ، فأمسى الخليفة طَوْع بنانها ، وما أن يسعى إلى الخلاص من وصـايتها حتى يلقى حتفه توّاً . وهكـذا توالى عـلى كرسي الخـلافة في مـدة زمنية خـاطفة (٢٤٧ ـ ٢٥٦هـ) أربعة خلفاء بعد مصرع المتوكِّل هم : المنتصر ، المستعين ، المعتز والمهتدي . وكان هؤلاء الخلفاء صنائع الأتراك في البداية ، ثم تململوا من تحكّمهم وجَوْرهم . فذلك لحقه السمّ ، وذاك فرّ ناجياً بجلده ، وثالث ورابـع انتهبتهـا السيوف ! ولقـد توصّـل بعض الأتراك البـارزين الى مصـاهـرة البيت المالك نفسه ، شأن القائد بُغا الكبير ، وكان أيضاً ابن خالة المتوكِّل .

ولم يكن التناقض على مستوى قمة الحكم بين الخليفة والطغمة التركية هـو التناقض الوحيد، فقد كانت الخلافـات تدب بـين القادة الأتـراك أنفسهم، في صفوف القيادة المسيطرة، فتنعكس على جنـودهم بعضهم ضد البعض الآخـر. وإنْ كانت كلمة القادة الأتراك تتوحد على نحو مرحلي مؤقت ، عند مجابهـة أي خليفة يسعى إلى الوقيعة بينهم ليستثمر خلافاتهم . ثم إن العامة كانوا يتذمرون من تصرفات الأتراك وتعدّياتهم ويضجّون بـالشكوى ، وربمـا جاوزوا ذلـك إلى

توزيع الرِّقاع ، أي المناشير بلغة اليوم ، صنيع العامة عندما انبروا إلى دعم الخليفة المهتدي ، الرضيّ السيرة النقيّ السريرة ، ضد الأتراك الذين عمدوا الى قتله . إن النفوذ التركي كان بمثابة العصا الغليظة البطّاشة التي أتى بها بعض الخلفاء العباسيين ليحموا بواسطتها أنفسهم ، لكنهم أمسَوْا في ما بعد بحاجة إلى مَنْ يحميهم من هذه العصا المجلوبة . كان العرب الحاكمين يستعينون بالأتراك المرتزقة لضرب المعارضة العربية والقوميات الثائرة ، لكن مراكز هؤلاء الأتراك كانت تتقوى ، فيضربون بالتالي مواقع العرب الحاكمين ويعززون مشاركتهم لهم في السلطة . لقد بدت الخلافة ، مع سطوة الطغمة العسكرية التركية ، حكماً شبه دخيل يكاد لا يربطه بالناس رابط .

لكن التناقض الذي أبهظ كاهل الخلافة هو أن الطغمة العسكرية التركية ساهمت بقوة في السطو على بيت المال وإفراغه ، بحيث بدت الدولة عاجزة عن الوفاء بالتزاماتها ، حتى حيال جند الجيش النظامي التركي العاديين البسطاء الذين كانوا يشغبون طالبين رواتبهم المستحقة فيصرخ بهم « وَصيف » ، أحد أقطاب الطغمة التركية المتحكمة : « خُذوا تُراباً ، وهل عندنا مال » ! من الصحيح أن الطغمة العسكرية التركية كانت تشارك الفئة العربية الحاكمة في تجديد استمرارية علاقات الإنتاج القائمة والإطالة في عمر السلطة المطلقة ، غير أن العبء المالي الذي شكّلته الطغمة التركية على مالية الدولة ، وازدياد المتطلبات العسكرية مع بداية تفكك الخلافة العباسية ، ونزوع الولاة المحليين الى الاستقلال ، وتواتر حركات التمرد والخروج على سلطة بغداد ؛ هذه العوامل المتداخلة جعلت التناقضات الاجتماعية تنتقل الى حالة التفجّر تحت وطأة النهب العسكري على نحو لصوصي ، مما أحدث على الأرجح « تضخماً مالياً » ، بخاصة مع نفاد أو ضياع مناجم الذهب والفضة .

ونتج عمّا تقدم ذكره أن نشطت الانتفاضات على طاعة الدولة المركزية إثر

مصرع المتوكّل . فهذا يعقوب بن الليث الصَّفّار يطيح بآل طاهر ويستولي على فارس . وقد حاول عليّ بن محمد ، قائد ثورة الزَّنج ، الاستفادة في ما بعد من قوة الصّفّارين ، فاقترح عليهم التحالف ضد جيوش السلطة . وتمرد أحمد بن طولون على مركز الخلافة فاستقل بمصر وسوريا ، قاطعاً بذلك شريان الواردات المالية عن بغداد يوم كانت في أمسّ الحاجة إليها . وتحرك الخوارج بدورهم ، بعد طول استكانة ، في دائرة المَوْصل . واشتدت المعارضة العلويّة في الكوفة ومِصْر وطَبَرِستان . وكان النهوض الثوريّ يعثّ تحت الرماد مع القرامطة واختمار قواهم ونزولهم بين الناس والجماهير الكادحة مسلحين بالدعوة والدُّعاة ، شأن الأحزاب الثورية المعاصرة . ولقد تفاعلت آثار متبادلة بين هذه الحركات ، خصوصاً الحركات الثورية الداعية الى العدالة الاجتماعية ، أمثال الزَّنج والقرامطة . ومن الثابت أن لقاء تمّ بين عليّ بن محمد ، صاحب الزَّنج ، وحمدان قَرْمَط ، ومن الراجح أن فلول الثورة الزّنجيّة ، عقب اندحارها ، قد انضوت تحت لواء الثورة القرمطيّة في العراق .

الاسلام والرق

إن اليد العاملة في إحياء الأراضي المَوَات في منطقة البصرة ، والمكوّنة من العبيد ، الزَّنج ، خضعت لمعاملة زريّة تتنافى وتعاليم الإسلام نفسها التي لم تلغِ الرِّقّ ، إلا أنها دعت الى الحُسنى في معاملة الرقيق والرفق به . كما أن هذه المعاملة الشرسة لا تتوافق مع وصايا النبي الذي كان يحضّ المسلمين على مساواة أرقّائهم بأنفسهم ، يُطعمونهم مما يأكلون ويُلبسونهم مما يلبسون ، ولا يكلفونهم من العمل ما لا طاقة لهم به ، ولا يعرِّضونهم لعذاب أو مكروه . فأين هذه التعاليم والوصايا من الواقع المَهِين الذي رزح فيه الأرقّاء الزَّنج ؟!

يقتضينا الإنصاف أن نضع خطاً فاصلاً بين المعاملة الشرسة التي خضع لها

الزّنج في المشاريع الزراعية الكبرى في العراق ، وفي منطقة البصرة خصوصاً ، وبين سائر الأرقّاء من بيض وزَنج في الإمبراطورية العباسية المترامية الأطراف .
من الصحيح أن الواقع القانوني الفقهي النظري لا يتطابق دائماً مع الواقع العملي الفعلي ، لكن وقائع الحياة المسطورة في كتب التاريخ والأدب والفكر تحمل على الاعتقاد أن المجتمع الإسلامي ، مع إقراره بالرقّ واستغلاله للعبيد كشكل من علاقات الإنتاج ، لم يذهب بعيداً ، على شاكلة المجتمع الروماني مثلاً ، في استثمار العبيد واستنزاف قواهم حتى الرمق الأخير . إن وجود التشريع الفقهي ، حتى ولو لم يُعمل به دوماً ، لدليل على أن الرقيق له حقوق وعليه واجبات ، ويمكنه محاولة الانتفاع بالنص القانوني في كثير من الأحيان لصالحه . وتتبدى لنا هذه الواقعية ، على سبيل المثال ، في نظرة كل من المسيحية والإسلام الى المرأة الجارية المحظيّة . ففي حين أن الجارية في المسيحية ترتبط بسيدها بعلاقات تُعتبر غير شرعية ، ولا تحوز على أيّ حق لها أو لأولادها ، فإن الجارية التي تصبح « أم ولد » ، في الوسط الإسلامي عهدذاك ، تكسب حريتها عند وفاة سيّدها الذي تبيح له الشريعة مجامعة جواريه ، كما أن الأولاد الذين تُرزق بهم يولدون أحراراً . من الصحيح أن العبد كان مُلكاً لسيده ، لكن هذه المُلكية ليست مطلقة . فالعبد يتناول أجراً ، ومن حقه أن يتزوج ، ويمكنه أن يحرر نفسه لقاء مبلغ من المال ، إلى جانب أن الإسلام حثّ المؤمنين على عتق عبيدهم .

كان العبيد يعملون في البيوت ، فيصبح الكثير منهم موضع ثقة أسيادهم ، بحيث يكلفونهم الإشراف على أعمالهم أو العناية بأولادهم . أما العبيد الزِّنج فكانوا يعملون في البيوت والجيش ، وتُستخدم النساء منهم جواريَ ومُرضعات . وكان العبيد ، السلافيون بشكل خاص ، يخضعون لعملية شنيعة تجعل منهم خِصْياناً ، ليقوموا بحراسة الحريم ! وارتقى بعض

العبيـد إلى مناصب كبـرى في الجيش ، بدليـل العبيد الأتـراك الـذين أتت بهم الخـلافـة من آسيـا الـوسـطى ، وقـد تسلط بعضهم عـلى شؤون الحكم بحيث أضحى الخليفـة ألعـوبـة بـين أيــديهم . وكـان كثــير من العبيـد يشتغلون في الصنـاعات اليـدوية ، أو يتعـاطَوْن التجـارة أو الزراعة بشكل شبـه حر ، أو تجعلهم الخلافة يعملون في مشاريع البنـاء الكبرى . عـلى أن الإنتاج في العصر العباسي ارتكز ، عموماً ، على الفلاحين الأحرار وأنصاف الأحرار وعلى العمال اليدويين . ولم يعرف الإسلام بشكل عام نمط الإنتاج العبودي الذي مورس في المزارع الكبرى ، اللاتيفونديا الرومانية ، وفي مستعمرات العبيـد المصارعـين ، حيث ثـار سبارتـاكوس عـام ٧٣ ق.م. وتزعّم العبيـد في ثـورة عـاتيـة بـاسلة سيطرت على جنوب إيطاليا . كان الـرقّ في التاريـخ الإسلامي من المؤسســات العائلية والاجتماعية ، بيد أن هذا التاريخ لم يعدَم استثناء واحداً تمثّل في الزَّنج الذين استُعملوا على نحو جماعي ضمن المشـاريع الـزراعية الكبـرى في منطقـة البصرة ، وذلك في القـرن الثالث الهجـري ، التاسع الميلادي . وقـد حدث هـذا عندمـا انطلقت التجـارة الى مداهـا الأرحب ، وعرفت الـزراعة تـوسعـاً كبيراً ، وترامت حركة إحياء الأرض المَوَات نتيجة التضعضع السيـاسي والنهب المـالي ، وربما من أثـر النهوض الاقتصـادي ، مما أدى ، عهـدذاك ، إلى تنامي النظام العبودي في العراق وانتشاره .

عندما قضى « كراسوس » في مذبحة دموية عـلى سبارتـاكوس وصحبـه عاد من « كـابـوا » الى رومـا منتشيـاً ، وشنق عـلى الـطريق ستـة آلاف من العبيـد الأسـرى ، فخطّ بذلـك دربـاً من العـذاب والصُّلبـان لا يُنسى . ومن وقـائـع التاريخ أن معظم الزَّنج ، المنضوين تحت لـواء صاحبهم عـليّ بن محمد ، كـان مصيرهم الموت الزؤام ، ومن تبقّى منهم عاد إلى الاسترقاق مجـدداً . إن العبيد الزَّنج هم صُلبـان التاريـخ الإسلامي ! وربّ قـائل إنـه كان عـلى الإسلام أن

يلغي الرقّ تماماً ، وَفْقَ إيديولوجيته الإنسانية ، لكن هذا قول مثاليّ ينظر إلى التاريخ من خلال هالة الدين لا عبر الواقع الاقتصادي والتاريخي . إن التاريخ تصنعه الضرورات ، وليست أرضه مبلطة بالنوايا الطيبة والأفكار المطلقة .

تكوّن البطائح في العراق

كان الزَّنج يشتغلون في أراضي البصرة على شكل جماعات حاشدة ، مؤلفة من المئات أو الآلاف ، يخوضون في عمل مرهق يتطلب قوة ومثابرة وجَلَداً ، إذ إن منطقة أدنى العراق كانت أراضيها مشبعة بالملح ، المتأتي من طبيعة الأرض ومن طغيان أمواج البحر ، عند رأس الخليج الفارسي (أو الهندي قديماً ، والعربي حديثاً) ، وتسللِ مياه هذه الأمواج مع حركة المد والجزر إلى شط العرب ، أو كما كان يُدعى دِجلة العوراء ، عند ملتقى دِجلة والفُرات في مجرى واحد ، ثم تسرّبِ هذه المياه مع الزمن إلى أعماق التربة ، مكوّنة طبقة ملحية تعطّل الأرض . وتعرضت منطقة أدنى العراق التي تخترقها الأنهر بغزارة عجيبة للبُثُوق والفيضانات الموسمية ، فتحولت أراضيها إلى مستنقعات تُدعى البطائح ، وتتخللها الأهوار وهي بحيرات غير عميقة الأغوار . ويعود السبب إلى أن مياه الفيضانات لا تقوى ضفاف الأنهر الواطئة الرخوة على صدّها فتنفجر البُثُوق عَبْرَ هذه الضفاف ، وتغمر المياه المتدفقة الأراضي حاملة إليها الطَّمْي المخصب للزراعة . وتشمل البطائح المنخفض المنبسط الممتد من الكوفة وواسط شمالاً حتى البصرة جنوباً .

ويرجع ظهور هذه البطائح ، كما يذكر البلاذُري ، إلى العهد الفارسي حينما انفجر بثْق كبير عند أسافل كَسْكَر ، وذلك أيام قُباذ بن فيروز الذي كان مهملاً واهناً ، فكان أن غطّت المياه كثيراً من الأراضي العامرة . ثم كان زمن كِسرى أنو شِروان فولّى ابنه الأمر ، فعالج الأراضي الغارقة بأن أقام

المسنّيات ، أي السدود ، فعاد بعضها صالحاً . بيد أن أمر ظهور البطائح ليس رهناً بتاريخ الأكاسرة ، كما يرد في المصادر العربية ، وذلك لأن البطائح قديمة عهد في جنوب العراق ، وقد ورد ذكرها في الكتابات المسمارية تحت لفظ يعني المستنقعات ولفظ آخر يعني الأراضي المغطاة بالقصب . وهذه السدود التي أتينا عليها مع كسرى أنو شروان عمل كل مَنْ توالى على المنطقة في إقامتها ، منذ الأشوريين مروراً باليونان والرومان فالفرس . ولكن في بداية الفتح الإسلامي ، في السنة السادسة أو السابعة للهجرة ، ارتفعت المياه في دجلة والفرات ارتفاعاً خطيراً لم يُعهد من قبلُ ، فحدثت بثوق كبرى وطغت المياه على عدة طساسيج ، أي النواحي الزراعية ، طافية فوق العمارات والزروع . فجهد كسرى أَبَرْويز بنفسه في وقفها وسكر البُثُوق فلم يُفلح رغم طغيانه ، إذ صلب في يوم واحد أربعين عاملاً أو كما جاء في « الأحكام السلطانية » للماوردي « سبعين سكارى » . ثم كانت الفتوح الإسلامية فشُغل الطرفان بالمعارك والبطولات ، فكانت البثوق تتوالى ولا مَنْ يلتفت إليها ، ويقف الدهاقين عاجزين عن إصلاحها . فازدادت البطائح اتّساعاً ، بحيث انتهت مع الزمن الى مساحة شاسعة لا يستهان بها أبداً . وقد قدّر ابن رُسْته في « الأعلاق النفيسة » مساحة البطائح بثلاثين فرسخاً في ثلاثين . وقدّرها المستشرق لوسترنج في كتابه « بلدان الخلافة الشرقية » بخمسين ميلاً عرضاً في مائتين طولاً . وبلغة الحساب فنحن حيال مستنقعات تغطي مساحة من الأرض تبلغ لبنان مرة وثلاثة أرباع المرة تقريباً ! فمساحة لبنان تنيّف على عشرة آلاف وأربعمائة كيلومتر مربّع ، في حين أن مساحة البطائح عشرة آلاف ميل مربّع ، مع العلم أن الميل يساوي ١٦٠٩ أمتار .

أدوات الإنتاج : العبيد الزنج

كان على جموع الزَّنج ، يشاركهم في هذا العمل الشّاق عبيد أو أنصاف

أحـرار من البِيْض أيضـاً ، أن يجففـوا المستنقعـات ، وأن يكسحــوا الـطبقــة الملحية ، وتسمى السِّباخ أو الشُّوْرج ، فتتراكم هذه الكسوح عـلى هيئة كُثْبـان كأنها الجبال . وكان للملح قيمته التجارية في ذاك العصر ، وكان مادة يقـايَض عليها بالعبيد في أفريقيا . لذا وُجدت فئة من التجار هم الشُّوْرجيّـون يتعاطَـوْن العمل بهذه الكسوح الملحية ، فيسخّـرون من أجلها مئـات العبيد وربمـا بعض الأحرار الذين كانوا يُعرفون بغِلمان الشُّورجيـين . والغُلام ، لغـةً ، هو العبـد والأجير . وكانت مهمـة هؤلاء الغلمان أن يجمعـوا الكسوح الملحيـة ، ومن ثم ينقلوها ، بواسطة البغال ، إلى حيث يتم الاتّجـار بالملح . وهكـذا فإن الأرض السَّبْخَـة ، عقب إزالـة الأمــلاح عنهـا ، تغـــدو مؤاتيـة للزراعــة بعـد أن تمّ استصلاحها .

لقد كان الزَّنج يَحْيَوْن في مستوى أدنى من الأرقّـاء ، فهم مجرّدون من أيّ حق ، ويعملون دون لقاء سوى قليل من الطعـام لا يفي بمتطلبـاتهم الجسديـة وبـظروف عملهم المضني . كان طعـامهم مؤلفاً من التمـر ، المتوافـر بكثـرة في المنطقة ، ومن الـدقيق ، والسَّوِيق . وهـذا المأكـل يُصنع من طحـين الحنطة أو الشعير المحمّص الممزوج بالتمر ، وهو على العموم لا يُشبع ولا يغذّي ، ويولّد الـرياح في المعـدة فينفخها ، وهـو عسـير الهضم . ويكفي أن الجـاحظ وصف السَّـويق في « البخلاء » قـائلاً إنـه : « من عُدد المسـافر ، وطعـام العَجْـلان ، وغذاء المبكر ، وبُلغة المريض » . وهكذا كان الزَّنج يعيشـون شبه جيـاع ، في حين كان أثرياء البصرة يكدّسون الأموال من جـرّاء استثمار أدوات إنتـاج شبه مجانية ، فيستقطرون أتعاب العبيد الزَّنج وعذاباتهم دنانـير لامعة . لهـذا كانت ساعة الانتقـام الطبقي من قِبَـل الزَّنـج المظلومـين حيال جشـع التجار شـديدة الوطأة على البصرة ، كعبة المستغلّين ومستودع أموالهم .

لم يكن العبـد من الزَّنـج غالياً في بورصـة النِّخاسـة لذاك العهـد ، فثمنه

يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ديناراً ، في حين كان العبد الأبيض يصل ثمنه إلى أضعاف مضاعفة لهذا الثمن البخس . إن أثرياء البصرة كانوا يحشدون العبيد الزَّنج برأسمال لا يرهق خزائنهم، ويسخّرونهم ، لقاء طعام بسيط ، محلّي ، زهيد الكُلفة ، وذلك للعمل في أراضٍ حصّلوها بالمجان من طريق الإحياء . وهكذا فإن « فائض القيمة » بين ما بذله التجار أصحاب الإقطاعات من أموال ، وما حصّلوه من سبيل الاتّجار بالشُّورج أي الملح وبواسطة زراعة الأرض المستصلحة ، يبدو باهظاً . وكان الزَّنج يعملون تحت رقابة وكلاء لأصحاب الإقطاعات يشرفون على سير الأعمال ، وهؤلاء الوكلاء من العبيد المعتَقين الذين يُغلظون في معاملة الزَّنج ، يبغون تبييض وجوههم لدى السادة ، ليفوزوا بِفُتات الغنائم ، وليثبتوا تمايزهم الطبقي الجديد . وكلما كان عَسْف هؤلاء الوكلاء مع الزَّنج أشدّ كان حاصل الإنتاج أوفر ، والرضا عنهم لدى أرباب عملهم أعمّ .

إن الزَّنج العاملين في استصلاح أراضي المَوَات بالبصرة كانوا يعيشون واقعياً ، من الناحية المادية ، في مجاعة مستترة ، فهم يسمعون بالشبع دون معرفته . وكانوا يعملون أطراف النهار في كدّ متواصل ، ليرتموا آناء الليل منهكين في عَرَاء تظلله السماء أو في أكواخ حقيرة من الطين والخُوْص أي سَعَف النخل . كان الزَّنج ، شأن القَرماطيين والنُّوبة والفُراتية ، يعرفون التعامل باللغة العربية ، لأنهم يعودون في أصولهم إلى بلاد السودان والنُّوبة ذات الصلة بالعرب لغة أو بالإسلام ديناً وحضارة ، أو أنهم من الذين مكثوا طويلاً في فُرات البصرة فتأثروا بالعاملَيْن المذكورَيْن . إن وجود الزَّنج في المنطقة عندما غدت إسلامية يرقى إلى القرن الأول الهجري ، بدليل أنهم تمردوا في فرات البصرة عدة مرات ، ولم تكن أعدادهم بعدُ كبيرة جداً ، وذلك أيام مُصعب بن الزُّبير في السنة ٧١هـ، وتحت ولاية الحجّاج بن يوسف على العراق

في السنة ٧٦هـ ، وخلال خلافة المنصور أيضاً . غير أن الزَّنـج الأنقياء أتى بهم تجار الرقيق المسلمون من بلاد الزَّنج ، أي على طول امتداد السواحـل الشرقيـة لأفريقيا التي عرفها العرب قديماً ، حتى قبل الميـلاد ، وارتبطوا معهـا بعلاقـات تجارية وُثقى . هؤلاء الزَّنج الأنقيـاء أقلّهم تجار الـرقيق ، على شكـل أسرى أو بـواسطة الشـراء ، الى منطقـة البصرة ، وذلـك من مـرافىء زَنْجِبـار ، وممبسّـه الواقعة حالياً في كينيا ، وسُفَالة في موزمبيق ، ومن جـزيرة مـدغشقر . ولم يكن هؤلاء الزَّنج الأنقياء يفقهون العـربية ، وقـد عاشـوا كالغـرباء في محيط العـراق الأدنى ، وكان عليّ بن محمد ، قائد ثورة الزَّنج ، يستعين بمترجمين لينقلوا اليهم فحـوى خُـطَبـه في حشـود الثـائـرين . إن زَنْـج البصـرة في أعدادهم الكثيفـة الكبـرى ، مما يمكن استنتـاجه من الجيـوش الضخمة التي واجهـوا بها الخـلافة خـلال ثورتهم العـظمى ، أملت مجيئهم الحاجةُ التطوريـة الاقتصـاديـة ، ولم يتوافر لمعظمهم المزج الحضاري أو التأثر بهذا الشكل أو ذاك بالبيئة الإسلاميـة ، شأن غيرهم من الزَّنج القدامى على المجتمع الإسلامي الذين قد يكـون عناهم الجاحظ عند وضعه رسالة « فخر السودان على البِيْضان » .

نمط الإنتاج العبودي

والأمر الباعث على الدهشة أن الزَّنـج ، بالإضـافة إلى الحـرمان في المـأكل والمسكن ، لم يكونوا يحيَوْن حياة عائلية ، ويشير المسعودي في « مروج الذهب » الى تميّز الزَّنج بالنمو البالغ للأعضاء الجنسية ! ولا نـدري إذا كان تجـار البصرة قـد أكرهـوهم على هـذه الحياة لئـلا يستنفـدوا جـزءاً من قـواهم الجسـديـة في المجامعة . إنـه بالأحـرى نمط الإنتاج العبـودي حيث يحشد المستثمرون العبيد على شكل « كولونيالي » ، يستخرجون عملهم قطرة وراء قـطرة ، شأن الآلات الصمّاء . وليس يبالي المستثمرون بعدها أجاع العبد أم عانى الحرمان أم هلك ؟ لأن العبيد الزَّنج كانوا يشكّلون أسفل قاعدة الهرم الاجتماعي من حيث حقارة

الأوضاع التي رسفوا في أغلالها ، فينيخ المجتمع العباسي بثقله الاستغلالي الفظ على هؤلاء الآدميين التعساء . فالزَّنج يشبهون « البروليتاريا الرثّة » التي ذكرها ماركس ، مع فارقين مهمين وهما : إن هؤلاء الزَّنج يعملون على نحو جماعي ، ثم إن صلتهم بالإنتاج متينة . وكانت الطبيعة تشارك التجار من الأثرياء المُحدَثين في عراق العباسيين في استرقاق الزَّنج ، وذلك أن الأوبئة الخبيثة كانت تستفحل بين صفوفهم ، بسبب الظروف القاسية في منطقة البطائح حيث تتفشى الرطوبة بسبب المستنقعات ، تنضاف إليها الحرارة اللاهبة نتيجة مُناخ العراق المعهود . فتنتشر أسراب الهوام ، كالبرغش والبَعُوض والبَقّ ، تزرع بلسعاتها في أجساد الزَّنج ، المفتقرة إلى التغذية ، الأمراض المنهكة والجراثيم الفاتكة ، ونخص منها بالذكر الملاريا .

إن هذا النظام العبودي خضع له الزَّنج العاملون في الأرض أو المرتبطون بالإنتاج ، شأن غِلمان الدبّاسين والتمّارين الذين كانوا يشتغلون بالتمور كما يستخرجون منها الدِّبس . والبصرة ذات شهرة بعيدة في إنتاج أصناف التمر التي لا حصر لها ، وأراضيها تغطيها ملايين باسقات النخيل . وهذا الإنتاج من التمر والدِّبس يلعب دوراً حيوياً في اقتصاديات البصرة فالعراق قديماً وحديثاً . ولا يغربن عن بالنا شأن البصرة التجاري العظيم ، بدليل قيام « المِرْبد » في سالف الزمن بين جنباتها همزة وصل بين الحاضرة والصحراء ، ولا ننسَ موقع مينائها النهري ـ البحري . وكان بعض الزَّنج يعمل في المناجم ، أو في الملاحة . وخدم فريق منهم في الجيوش ، واشتغل فريق آخر في بيوت الأثرياء من أصحاب الأراضي وعند التجار الموسِرين ولدى رجال الحكم المرفّهين . وهذان الفريقان الأخيران كانا في وضع مادي واجتماعي أفضل بلا ريب ، لأن الجيش يحمي الخلافة ويقوم بالغزوات فيلقى نصيباً من الخيرات ، والعمل في البيوت ، أي قطاع الخدمات ، يوفّر طعاماً معقولاً بشكل نسبيّ

وبيئة غير قاسية إذا ما قيست بظروف العمل في الأرض والإنتاج . والزَّنج الذين كانوا يعتصرون حياتهم في استصلاح الأرض وتمهيدها للزراعة والإنتاج ، شكّلوا النواة الحقيقية التي عقد عليها عليّ بن محمد وصحبه من القادة ذوي البَشَرة البيضاء ، الآمال في استنهاضها ودفعها في ثورة عاتية ضد الخلافة . لقد كوّنوا مادة ثورة الزَّنج ولحمها وعصب انتصاراتها ، ثم أمْسَوْا ضحاياها وصُلبانها . وثورتهم المسحوقة ، عقب خمس عشرة سنة من الجهود الحربية التي بذلتها الخلافة ، هي التي وأدت نمط الإنتاج العبودي الذي كان ينمو فوق أرض العراق(*) .

(*) خالفتُ في هذا البحث المقتضب الأسلوب الأكاديمي الذي من شأني أن أتّبعه دائماً ، وأعتقد أنه الأوفق عموماً ، بحيث لا أذكر رأياً و لا أُدلي بفكرة إلا وأرفقها بالمصدر المعني أو المرجع المناسب . وهكذا يبدو ما لقيصر لقيصر ، ويتبين القارىء الإضافات المحتملة التي قد نكون نجحنا في إضفائها على الموضوع المطروح . لذلك أجدني في هذه المرة أسوق مراجعي الأساسية دفعة واحدة ، مع إغفال المصادر المتفرقة ، شأن البلاذُري والمسعودي وقُدامة والماوردي وغيرهم من العلماء الأوائل . لكن ما يخفف من شعوري بالتقصير الأكاديمي قناعتي أن أهم ما جاء في هذه الدراسة العامة ، من حيث الصياغة الفكرية والاستنتاجات المحورية ، يعود في معظمه الى آرائي الشخصية . ثم إن التجربة أرشدتني أن أسلوب الكتابة الذي لا تثقله الحواشي والسَّمْت العلمي الجاف ، هو أجدى للقارىء غير المختص وأسلس .

وبعد ، فهناك ثلاثة مراجع رئيسة ينبغي الإتيان على ذكرها هي التالية :

١ ــ فيصل السّامر : ثورة الزَّنج ، دار القارىء ، بغداد ١٩٥٤ . وقد اطّلعنا في هذا الكتاب على الفصل الأول : الزَّنج وأحوالهم الاجتماعية (ص٩ ـ ٣٧) .

٢ ــ أحمد عُلَبي : ثورة الزَّنج ، وقائدها عليّ بن محمد ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦١ . وقد استندنا على كتابنا القديم لاستقاء المعلومات التاريخية من الباب الثاني : أسباب ثورة الزَّنج ، بفصوله الثلاثة : العوامل السياسية (ص٥٤ ـ ٦٣) ، الفصل الثاني : العوامل الاقتصادية (ص٦٤ ـ ٧٤) ، والفصل الثالث : العوامل الاجتماعية (ص٧٥ ـ ٨٤) .

٣ ــ وقد انتفعنا بأطروحة ألكسندر بوبوفيتش ، المقدَّمة الى السوربون بالفرنسية : عليّ بن محمد وثورة العبيد في البصرة ، باريس ١٩٦٥ . ففي هذا العمل لبوبوفيتش ثلاثة =

= فصول هي الرابع والخامس والسادس ، تقوم في حقيقتها على جمع مقتطفات ومنتقيات مستقاة خصوصاً من مستشرقين عُنوا بالموضوعات المطروقة:

الفصل الرابع : الرقّ في الإسلام (ص٥٤ ـ ٥٩)

الفصل الخامس : المنطقة (ص٦٠ ـ ٩٣)

الفصل السادس : العصر (٩٤ ـ ١٠٤).

وقد أعاد المستشرق صياغة هذه الفصول عبر سياق تأليفي لدى طبع أطروحته بعدها في كتاب يحمل العنوان التالي : ثورة العبيد في العراق خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، منشورات غوتنر ، باريس ١٩٧٦ . وفي هذه الصياغة الجديدة لهذه الفصول المتقدمة الذكر نزل الصديق بوبوفيتش عند أحد تمنّياتنا التي وجهناها له لدى نقدنا المسهب لأطروحته (أنظر كتابنا : الإسلام والمنهج التاريخي (ص٢٥ ـ ٦٢) ، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٥).

الفصل الثالث

سبارتاكوس، صاحب الزَّنج، المختار الثقفي ويونس

(دراسة في السلوك السياسي ـ الميتولوجي)

لفقيد الأدب العربي ، طه حسين ، دراسة تحمل عنوان « ثورتان » نشرها في مجلة « الكاتب المصري » (مايو ١٩٤٦) التي كان يرئس تحريرها ، ثم أعاد نشرها في كتابه «ألوان»، وهي تقوم على المقارنة بين ثورة سبارتاكوس في العهد الروماني وثورة الزَّنج في العصر العباسي . والدراسة بمجملها أدبية الطابَع ، تفتقر إلى التحليل العلمي المعمّق ، ولا مسوّغ تاريخياً يبررها إذ أيّ جدوى في عقد المقارنة بين ثورتين لا رابط بينهما في الزمان والمكان والظروف الموضوعية . على أن أهم ما يستوقفنا في بحث طه أنه يحثّ الأدباء العرب على استلهام ثورة الزَّنج ، كما استلهم الأدباء الأوروبيون من ثورة سبارتاكوس أعمالاً جميلة . وهو استلهام يصل الحاضر بالماضي ، ويضيء صفحة مشرقة من المطالبة بالعدل الاجتماعي ومن المساهمة الإنسانية في هذا السبيل ، كما يوضح أننا لسنا بدخلاء أو عِيالاً في تطلّب العدل والسعي إليه في رِفْق أو عنف وإنما هو حلقات متصلة في تاريخنا لا يميّز بينها سوى التطور الذي لا بدّ منه . وأَولى بكتّابنا أن يلتفتوا إلى هذا الزاد الثوري يدرسونه ويستلهمونه ويتبصرون أننا قدماء في موضوعات العدل ونُظُمه التي تفد إلينا في أيامنا من وراء البحر ويتلمسها الكثيرون متناسين أن لهم سجلاً على هذا الصعيد حريّ بنا أن نتمعن فيه

ونستنطقه شعراً ونثراً ودراسة[1] .

ثورة سبارتاكوس

ولو جئنا ندقق في ما أتى طه حسين على ذكره في دراسته « ثورتان » من أمر ثورة سبارتاكوس لوجدنا أنه يسرد من الأحداث ظواهرها الحربية الماثلة دون عللها الاجتماعية الكامنة . لقد كانت الثقافة اليونانية ديمقراطية الطابع جماعية تخاطب الروح والجسد لتحصيل الجمال ، في حين أن الثقافة الرومانية غدت أرستقراطية تنتفع بها أقلية غيورة ذات امتيازات تشتري بها الفنون وأصحابها . أمّا العامة فشأنهم الاحتفالات الدامية بين العبيد المصارعين ، والتي كانت في أصل منشئها الديني تقام لغرض تقدمة القرابين البشرية على شرف فقيد عظيم الشأن ، ثم صارت لتسلية العامة غير المنتجة وإشباع غرائزها القبيحة . كانت الألعاب المتنوعة تدور غالباً سحابة عدة أيام ، ويجري الصراع خلال ساعات تقديم ألعاب المصارعين بمختلف الأسلحة المستعملة والبائدة ، وكانت الوحشية سيدة الموقف ، وتنتهي المباراة على جثة أحد المتصارعَيْن المدرّبَيْن بحذاقة ودماؤه تشخب وتتدفق ! وكان الجمهور ، المكوّن في غالبيته من أناس عاطلين عن العمل ، يتطلب ويملي بصراخه المدوّي أن يكون الموت للمغلوب ختاماً ومصيراً مكتوباً . وكما تُعلف الحيوانات فإن العبيد المصطرعين كانوا يُطْعَمون ويُعَدُّون للنزال ، ولم يكن ثمنهم باهظاً في سوق تجارة الرقيق ، في حين أن الفائدة التي يجنيها أصحابهم خلال استعمالهم في الألعاب تبدو كبيرة . وكانت العداوة مستحكمة بدل التضامن الطبقي بين هؤلاء العبيد ، لأن صراع البقاء يدور بينهم ، فالبقاء

(١) طه حسين : « ثورتان » ، مجلة « الكاتب المصري » م٢ ، ع ٨ (مايو ١٩٤٦) ، ص٥٥٤ ـ ٥٥٦ ـ أو راجع كتاب « ألوان » ، ط ٣ ، ص١٦٦ و١٦٧ .

للأقوى المنتصر في ألعاب المصارعين هذه التي أمست علامة مميزة للعصر الروماني ولنمط ثقافته !

كان لا بد من شرارة لهذا الوضع المأساوي . وكان أحد أصحاب مدارس تدريب العبيد المصارعين في « كابوا » قد جمع في حَوْزته عدداً من العبيد من تراقيا وبلاد الغال وجرمانيا ، وكانوا في أمسهم غير البعيد أحراراً فاسترقّتهم روما في حروبها على الشعوب المجاورة . ونهض بينهم سبارتاكوس ، وهو حر من تراقيا خدم في جيش روما ثم هرب من الخدمة لينضم إلى أعدائها . وعندما وقع أسيراً عوقب بالاسترقاق ، وكان مآله هذه المدرسة للمصارعين في كابوا المحكمة التدريب والحراسة . لكن التَّوْق الى الحرية يكسّر القيود ، فإذا بأربعة وسبعين من نُزَلاء هذه المدرسة يخرجون من سجنهم في مقاطعة « كمپانيا » غير بعيد عن روما ويرفعون علم التمرد عند منحدرات « الڤِيْزوف » . أما لماذا كمپانيا بالذات ، فلأن هذه المقاطعة خضعت للأوليجارشية الإقطاعية التي وضعت يدها على السهل الخصب المكوّن من الأراضي الأميرية ، عاملة على اضمحلال المُلكية الصغيرة ، وحالت دون تطبيق القوانين الزراعية هناك . فكانت كمپانيا لهذا السبب أرضاً حُبْلى بعناصر التذمر ، وكان الرعاة العبيد في مراعيها يعانون ما يعانيه رعاة صقِلّيّة الذين سبق لهم وانتفضوا كما سنرى ، وآزرهم عهدها أربعة آلاف من عبيد كمپانيا . ولم يكن العبيد وحدهم في أحقادهم الراقدة ، فقد شاركهم فيها الفلاحون الصغار والعمال الزراعيون ، فكان أن حالف هؤلاء وأولئك سبارتاكوس ورفاقه عندما نهضوا بثورتهم عامي ٧٣ ـ ٧٢ ق.م . [٢] .

هذا تحليل موجز لكنه يضع اليد على العوامل الاقتصادية والاجتماعية

(٢) Jean-Paul Brisson: Spartacus, p.p. 200-207.

وراء ثورة سبارتاكوس ، في حين أن طه حسين نسج دراسته عن هذه الثورة وعينه على كتاب « سبارتاكوس وثورة الرقيق في روما » الذي صاغه « أرثر كوسلر » مستوحياً إياها أدبياً ، ويأتي طه على ذكر كتاب كوسلر في دراسته ليحثّنا أن نسعى سعيه عربياً مع ثورة الزَّنج . ولكن كوسلر ، الكاتب المجري ، جعل من هذه الثورة للعبيد مِشْجباً لتعليق أفكاره السياسية ، وليس ما أورده في كتابه عن هذا الثائر سوى نسيج روائي يفتقر إلى الدقة التاريخية ، وذلك بخلاف الكاتب الأمريكي المعروف « هاورد فاست » الذي قام بتحقيق تاريخي حريص عندما نشر روايته التاريخية « سبارتاكوس » . المهم في نظرنا أن هذه المقارنة بين ثورة المصارعين وثورة الزَّنج مصطنعة لا مسوّغ لها علمياً وحضارياً . وفي حين كان المصارعون يُعَدُّون للقتال ، ولهذا فإن أصحابهم كانوا يحرصون على إشباعهم وتغذيتهم ليكون لديهم جَلَد على القتال ، فإن الزَّنج كانوا يفتقرون الى المأكل الذي يجلب العافية ويقاسون الجوع المبتتر . لقد كان الأجدر بطه حسين ، منطقياً وعلمياً ، أن يقارن بين حركتين تنتسبان إلى التاريخ الإسلامي ذاته وإلى الحيّز الجغرافي نفسه .

الكلمة السحرية

من الطبيعي أن هناك سِمة مشتركة تجمع بين ثورات العبيد كافة ، وهي العِتْق والتحرير وإخراج العبيد عَنْوة من أيدي أسيادهم المالكين لرقابهم . فإذا كان شعار تحرير الطبقة العاملة في عصرنا هو المفتاح للدعوات المنادية بالعدالة الاجتماعية على مختلف نبراتها ، فإن نظام العبودية عندما كان سائداً متفشياً كانت « كلمة السر » فيه هي تحرير العبيد الذين كانوا يشكّلون مادة الثورة المأمولة . لهذا عندما نهض سبارتاكوس متمرداً ثائراً ، تقاطر إليه الرعاة العبيد في كمپانيا وانحازوا إليه وناصروه .

وفي الإسلام كان المختار بن أبي عُبيد الثقفي (ت ٦٧هـ) يملك الكلمة

السحرية فيقول : « أيّ عبدٍ بايعنا فهو حر . فسمعها عبدالله بن الزبير فقال : كان يقول إني أعرف كلمة إنْ قلتها كَثُرَ تَبَعي وهي هذه الكلمة » . ويعلّق صاحب كتاب « الأوائل » الذي أورد هذه الرواية على الكلام المتقدم قائلاً : « صاحب الزَّنج بنى أمره على هذا فاستمال العبيد »[3]. وبناء على هذا الوعد الصادر عن المختار الثقفي فقد تحلّق حوله في مَنْ تحلّق عبيد أهل الكوفة الذين أعطاهم العهد بتحريرهم وتزويدهم بأموال ساداتهم ، وقد حارب بواسطة هؤلاء العبيد وبالغلاة من الرافضة سكان الكوفة المناوئين له ، وتغلّب عليهم وفتك بالكثيرين وظفر بالأسرى[4].

صاحب الزنج

والمتتبّع لسيرة عليّ بن محمد صاحب الزَّنج لا بد أن يرى ، إذا أنعم النظر وقارن ، أن عليّاً أخفق في محاولاته الباكرة الأولى ، وذلك في البحرين وباديتها وفي البصرة نفسها ، عندما بنى طموحه الى السلطة على البدو والقبائل والعصبيّات ، بيد أنه عندما جعل من العبيد مادة تطلّعه ووقود ثورته أفلح وأقضّ مضجع الهاجعين في عاصمة الخلافة الجديدة « سامَرّاء »[5]، إذ إن

(٣) أبو هلال العسكري : الأوائل ، ق ٢ ص٥٤ .

(٤) عبدالقاهر البغدادي : الفَرق بين الفِرق ، ص٤٨ .

(٥) يورد طه أن عليّ بن محمد (وهو يذكره خطأ عبدالله بن محمد (؟) حيثما عرض له اسم عَبْر دراسته) قد كان متصلاً في بغداد ببعض الخدم المعروفين في رحاب قصر الخلافة (مجلة « الكاتب المصري » ، ص٥٦٣ ــ ألوان ، ص١٧٥) . والحال أن هؤلاء الخدم المحظوظين الذين اتصل بهم عليّ بن محمد ، شأن غانم الشِّطْرنجي وسعيد الصغير ويُسْر الخادم (ورد الاسم الأخير في الطبعة الألمانية لتاريخ الطبري « بِشر » ، كما جاء لدى ابن أبي الحديد «بشير») ؛ هؤلاء الخدم كانوا يلازمون الخليفة «المنتصر»، فهم من حاشيته (مؤلف مجهول : العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص١٥) . ويُسْر كان خادم المنتصر الخاص (ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، ج٨ ص١٢٧) ، وذلك في عاصمة مُلكه الجديدة سامَرّاء (أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج٣ ص٥٩) والتي نابت عن بغداد طَوال المدة من ٢٢١ هـ على عهد المعتصم الى خلافة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) (ابن =

الـركيزة التي بنى عليهـا عليّ بن محمـد ثـورتـه هي تحـريـر العبيـد وضمهم إلى صفوفه . وعنـدما بـذل له أسيـادهـم الأموال وعـرضوا عليـه خمسة دنـانير لقـاء استرداد كل عبد أبي وتمنّع واستشـاط غضباً ، إذ هؤلاء العبيـد هم بحر ثـورته وبردّهم إلى مواليهم يكون قد وضع نقطة النهاية لمطمحه أو مـطمعه . وعنـدما خُيِّل للعبيد أن صاحبهم سيردهم الى مواليهم اضطربوا ، فجمعهم وحلف لهم الأيمان الغِلاظ ، « وأعلمهم أنه لم يخرج لعَرَض من أعراض الدنيا ، وما خرج إلا غضباً لله ، ولِمَا رأى ما عليه الناس من الفساد في الدين ، وقال : ها أنا ذا معكم في كـل حرب ، أشـرككم فيها بيـدي ، وأخاطـر معكم فيها بنفسي » . ومما قاله لهؤلاء العبيد أيضاً : « لِيَحُطْ بي منكم جماعـة ، فإنْ أحسّـوا مني غدراً فتكوا بي »[٦] .

وإذا كان هناك من مقارنة معيَّنة يمكن أن نعقدها ههنا ، مجاراة لطه حسين في مسعاه ، فهي مثلاً السلوك الذي اتّبعه سبارتاكوس في إتيانه القسمة العـادلة

= الطِّقْطَقَى : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميـة ، ص٢٥٦) ، وهو « كـان آخر من انتقـل إلى بغداد من الخلفـاء وأقـام بهـا وتـرك سُرَّ مَنْ رأى بـالكليّـة » (يـاقـوت : معجم البلدان ، م٣ ص١٧٤ ، ١٧٦) . وقد عقد عليّ بن محمد الصلات مع هؤلاء الخـدم ، وذلك قبل سنة ٢٤٩هـ عندما ترك سامرّاء الى البحرين وباديتها ، « وكـان منهم معاشـه ومن قوم من أصحاب السلطان وكتّابـه يمدحهم ويستميحهم بشعـره » (الطبـري : تاريـخ الطبـري ، ج ٩ ص٤١٠) . وهذا الخطأ الذي وقع فيه طه حسـين في أنه جعـل العاصمـة بغداد في حـين أنها كانت لذاك العهد سامرّاء ، قد سبقه إليه ابن خَلْدون الـذي يقول عن عـليّ بن محمد : « إنـه شخصٌ من الذين حجبوا ببغداد مع جماعة من حاشية المنتصر ، ثم سار الى البحرين سنـة تسع وأربعين ومائتين » (تاريخ ابن خلدون ، م٤ ص٣٧) . والمنتصر هو قاتل أبيه المتوكـل ، وقد فصده طبيبه ابن طيفور بريشة مسمومة بإغراء من الأتراك ، فكـان من نصيب قاتـل أبيه أنـه لم يُكمل الأشهر الستة من خلافته الخاطفة ومات سنة ٢٤٨هـ . وما دام أن عليّ بن محمد قد ترك سامرّاء سنة ٢٤٩ ، فمعنى ذلك أنـه عاصر المنتصر وأدرك المستعـين الذي خلفـه (السُّيُوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٥٧ و ٣٥٨) .

(٦) الطَّبَري : تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، ج٩ ص٤١٨ و ٤١٩ .

للأسلاب بين أتباعه حفظاً لحياتهم ، واستعانته بالدين لضمان ثقة أتباعه بـه إذ كانت ترافقـه امرأة من بلده مـاهرة في تفسـير منامـاته وإضفـاء طابَـع القداسـة عليهـا[٧]. وهذا التصـرف القائم عـلى مراعـاة المساواة بـين الأنصـار ، وعـلى استثمار الدين في سبيل الدعوة ـ مما هو طبيعي لأن كل دين مهـما كان هـو لغة الناس المستساغة المفهومة ـ هذا التصرف عاوده عليّ بن محمد عند قيادته جموع الزَّنج ، بل إنه استعان بالإلهيّات قبلها في محـاولاته المخفقـة الأولى في البحرين والبادية والبصرة وخلال مكوثه في بغداد مدة عام . فهو يجري لسانـه بسُوَر من القرآن لا يحفظها تارة ، ويدّعي أنه يدرك ما في ضمـائر أصحـابه طـوراً . وفي بغداد « سأل ربّه بها آية أن يعلم حقيقة أمره ، فرأى كتاباً يُكتب لـه وهو ينـظر إليه على حائط ولا يرى شخص كاتبه »[٨]. وازداد هـذا المنحى عنده مـع قيام ثورة العبيد . فعندما اقتحم الزَّنج البصرة سنة ٢٥٧هـ وأعملوا فيها الخراب ، بحيث غدا خرابها مثلاً يُضـرب على الـزمن ، دعا صـاحب الزَّنـج على أهلهـا وألحف في الدعاء وسجد ، «فرُفعتُ إلى البصرة فرأيتها ورأيت أصحابي يقـاتلون فيها » . ويضع عليّ بن محمد المسؤولية في خراب البصرة على الملائكة فيقـول : « فعلمت أن الملائكة تـولّت إخرابهـا دون أصحابي . ولـو كان أصحـابي تولَّـوْا ذلـك لما بلغـوا هذا الأمـر العظيم الـذي يُحكى عنها . وإن المـلائكة لتنصـرني وتؤيدني في حربي ، وتثبّت من ضَعُفَ قلبه من أصحابي »[٩].

وقد أغفل طه حسين الكلام على مسلك سبـارتاكـوس ، في حين أنـه ذكر سلوك عليّ بن محمد المتقـدم بيانـه . وعلّق طه حسـين على هـذا السلوك الذي نسبه المؤرخون إلى صاحب الزَّنج قائـلاً بفطنـة ليست غريبـة على حسّ عميـد

(٧) Brisson: Spartacus, p. 207.

(٨) الطبري : ج٩ ص٤١١ و ٤١٢ .

(٩) الطبري : ج٩ ص٤٨٧ .

الأدب العـربي : « ومن الجائـز أن يكـون عبـدالله بن محمـد (يقصـد عـليّ بن محمد) قد زعم هذا كله أو بعضه لأصحابه ، فقـد كان هـذا النحو مـذهباً من مذاهب نشر الدعوة ووسيلة إلى إثارة الجماهير . ومن الجائز كـذلك أنـه لم يقل من ذلك شيئاً ، وإنما تكلف المؤرخون ذلك غضّاً منه وتشهيراً به وزراية عليه ، لأن النجاح لم يُكتب له »[١٠] .

هذا المسلك « الميتولـوجي » ليس وقفاً عـلى سبارتـاكوس أو عـليّ بن محمد صاحب الزَّنج ، إن كل ساعٍ إلى الثورة أو السلطة في الزمن الماضي تمثّـل بهذا المنحى عـلى هذا الشكل أو ذاك . إن سلوك المختـار بن أبي عُبيـد الثقفي مثـلاً الذي قام في القـرن الأول الهجري للثـأر ، كما زعم ، من قَتَلة الحسـين ، وما نشره من ادّعاءات وتأويلات ومخاريق تجعلنا نقول إن عليّ بن محمد في ما صـدر عنه بعدهـا خلال القـرن الثالث الهجـري صورة مقـاربة لمـا كان عليـه المختار الثقفي . ولمـاذا نذهب صُعـداً في التاريـخ ، أليس بعض الثوريـين في عصرنـا أشباه آلهة في مـا دُعي بمرض عبـادة الشخصية ؟ ولكنـه مرض متجـدد على مـا يبدو ، وكل ناهض لاستئصال المرض تصيبه عدواه أحياناً !

المختـار الثقفي

عندما شرعت تتعاظم سطوة المختار الثقفي وتمتد رقعة نفوذه من العراقـين حتى حدود أرمينية أخذ ، شأن بعض سالفيه ابتداء من مُسيلمة ، يسجع وكأن السَّجْع كان العلامة الفارقة والمشتـركة والغـطاء الروحي لكـل أدعياء النبـوّة أو الرسالة أو الزعامة المبرقعة بنقاب من الغموض والتهويل و« الكاريزما » العائدة لـذاك الزمن . لقـد سَجَعَ المختار شأن الكهنـة ، لـذا جـاء في المصـادر أنـه تكهّن . فهو قد زعم لنفسه أن الوحي نزل عليه وادّعى النبـوّة . فالمختـار كان

(١٠) مجلة « الكاتب المصري » ، ص٥٦٤ ــ ألوان ، ص١٧٧ .

قـد قاتـل في صفوف الحسـين بن علي ، والتحق بعـدهـا بصفـوف عبـدالله بن الزبير . ثم استـولى على الكـوفة ودعـا الناس الى منـاصرة محمـد بن الحَنَفيّة ، أخي الحسين من أبيه ، وزعم أن ابن الحنفية قد استخلفه ، وعادى ابن الـزبير وحاربه . ثم قام بتقتيل قَتَلة الحسين وإخراب بيـوتهم والانتصار عسكـرياً عـلى جُنـد الشام ، وخصوصاً أن الآلاف قـد اجتمعوا إليـه وبايعـوه . والنصر دائماً فتّـان خادع ، لـذا ما أنْ تمّت الغلبـة للمختار حتى تكهّن وسجـع ونبذ الـولاء لمحمـد بن الحنفية الـذي كان قد تبرأ منه لِما بدا لـه من تحـايله ولِمابلغـه من محارمه[11] . « ولما وقف محمد بن الحنفية على ذلك تبرأ منـه ، وأظهر لأصحـابه أنـه إنما نَمَسَ عـلى الخلق ذلك ، ليتمشى أمـره ، ويجتمع النـاس عليه »[12] . « وكان المختار يـزعم أن جبريـل يأتيـه ويُنزل عليـه قرآنـاً »[13]. ومن أسجاع المختار : « أما وربِّ السماء ، لتنزلنَّ نـار من السماء ، فلتحـرقنَّ دار أسماء » . فتـرامى هذا السّجْـع إلى أسماء بن خـارجة وكـان في الكـوفـة ، وهـو من جُلّة التـابعين ، فقـال : « ويلي عـلى ابن الخبيثة ، قـد عمل في داري قـرآناً »[14]. وقال : « قد سجـع بي أبـو إسحاق وإنـه سيحرق داري . وهـرب من داره . وبعث المختار الى داره مَنْ أحرقها بالليل ، وأظهر من عنـده أن ناراً من السـماء نزلت فأحرقتها »[15].

وعندما تجمّع سادات الكوفة الذين استولى المختـار على أمـوالهم وعبيدهم وقد منّاهم بـالتحريـر فانحـازوا إليه ، أغـرَوْا مُصعب بن الزبـير بقتال المختـار واستعادة الكوفة ، فانتخب المختـار عندهـا نخبة رجـاله وأخبـرهم بأن الظفر

(١١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات والذيل عليها ، م٤ ص١٢٣ .
(١٢) الشَّهْرَسْتاني : المِلل والنِّحل ، ق ١ ص١٣٢ .
(١٣) نَشْوان الحِمْيري : الحُوْر العِيْن ، ص١٨٢ .
(١٤) الحِميري : ص١٨٣ .
(١٥) البغدادي : الفَرق بين الفِرق ، ص٤٨ .

يكون لهم ، وزعم أن الوحي قد نزل عليه بذلك . فالتقى الجيشان بالمدائن ، وانهزم أصحاب المختار . ورجعت فلولهم إلى المختار وقالت له : « لماذا تعدنا بالنصر على عدوّنا ؟! فقال: إن الله تعالى كان قد وعدني ذلك ، لكنه بَدَا له . واستدل على ذلك بقول الله عزّ وجلّ : يمحو الله ما يشاء ويُثبت »[١٦] .

ومما جاء عن المختار أيضاً من أعمال تصبّ في خانة السلوك الميتولوجي الذي يُقصد به إغواء الناس وتضليلهم بغية كسبهم الى جانبه ، أنه اتخذ حماماً أبيض أطلقه في الهواء وخاطب أصحابه قائلاً : « إن الملائكة تنزل عليكم في صورة حمامات بيض »[١٧] . وقصة هذه الحمامات ـ الملائكة مأثورة مشهورة معروفة عن المختار[١٨] . وأساسها أن المختار لما وجّه إبراهيم بن الأشتر لقتال عُبيدالله بن زياد « دفع إلى ثِقاته حماماً بيضاً ووجههم معه وقال : إنْ رأيتم الأمر لنا فأمسكوها ، وإنْ رأيتم علينا فأرسلوها . ثم سجع فقال للناس : إنِ استقمتم فبنصر الله ، وإنْ حصتم حيصة فإني أجد في محكم الكتاب واليقين والصواب أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب في صور الحمام دون السحاب » . وعندما التقى الجمعان كاد إبراهيم بن الأشتر يُغلب على أمره ، فأطلق ثِقات المختار الحمام ، فعلا الصوت : الملائكة ، الملائكة ! فتراجع رجال عبيدالله ابن زياد وفتك إبراهيم بن الأشتر بعُبيدالله[١٩] .

فالمختار بن أبي عبيد الثقفي على حد تعبير ورد عند أبي حاتم الرازي « كان صاحب دعاوى ونيرنجات وشُبَه ومخاريق »[٢٠] . ويستوقفنا في سيرته الدالة على

(١٦) البغدادي : ص٥١ و ٥٢ .
(١٧) ابن شاكر الكتبي : م٤ ص١٢٤ .
(١٨) الشهرستاني : ق١ ص١٣٣ .
(١٩) أبو حاتم الرازي : كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، ق٣ ص٢٩٥ و ٢٩٦ .
(٢٠) كتاب الزينة ، ق٣ ص٢٩٤ .

التقلب والمغامرة أمران محوريان نلقاهما أيضاً في سيرة عليّ بن محمد صاحب الزَّنج . الأمر الأول أن المختار تردد بين المذاهب ، والأمر الثاني أنه قال بالبداء .

وسنلجأ إلى الشَّهْرَستاني لتوضيح مفهوم البداء لأنه يجلوه ويتوسع في شرحه . « البداء له معانٍ : البداء في العلم ، وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، ولا أظن عاقلاً يعتقد هذا الاعتقاد . والبداء في الإرادة ، وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم . والبداء في الأمر ، وهو أن يأمر بشيء ثم يأمر بشيء آخر بعده بخلاف ذلك . ومن لم يجوّز النسخ ظن أن الأوامر المختلفة في الأوقات المختلفة متناسخة . وإنما صار المختار الى اختيار القول بالبداء لأنه كان يدّعي علم ما يحدث من الأحوال ، إمّا بوحي يوحى إليه ، وإمّا برسالة من قِبَل الإمام . فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدوث حادثة ، فإن وافق كونُهُ قولَهُ جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإنْ لم يوافق قال : قد بدا لربكم . وكان لا يفرق بين النسخ والبداء . قال : إذا جاز النسخ في الأحكام جاز البداء في الأخبار »[٢١] .

وصاحب الزَّنج يذهب تقريباً هذا المذهب في تبرير بعض مواقفه وتصرفاته . فقد لاقى يَحْيى بن محمد الأزرق البحرانيّ مصرعه الشنيع ، إذ وقع في الأسر وهو مثخن بالجراح فحُمل الى سامَرّاء حيث ضُرب بالسياط « ثم قُطعت يداه ورجلاه من خلاف ، ثم خُبط بالسيوف ، ثم ذُبح ثم أُحرق » . فإذا بصاحب الزَّنج يحزن ويغتمّ لمقتله ، إذ كان مقرّباً إليه وهو أحد القادة البارزين في ثورته . « فخوطبتُ فقيل لي : قتله خير لك إنه كان شَرِهاً » . وتحدّث صاحب الزَّنج مبرراً موقفه الجديد بأنهم ذات مرة غنموا

(٢١) الملل والنّحل ، ق١ ص١٣٢ و ١٣٣ .

عِقْـدين وقعا في يـد يحيـى بن محمد ، فـإذا به يعـطي صاحب الـزَّنج أخسَّهـما ويخفي عنه أعظمهما . ولكن العِقْد الـذي أخفاه وأنكـره رُفِعَ لصـاحب الزَّنـج الذي شرع يصفه له وهو يراه ، فبُهت يحيـى[٢٢]!

إن تنقّـل المختار بـين مذاهب عصـره ينبىء عن انتهازيـة لا لَبْس فيهـا ، ويدعو الى التشكك في إخلاصه وإلى أن نضع علامة استفهام حول مدى وفائـه لـلآراء التي كـان يعتنقهـا . فـالمختـــار ، كـما جـاء عنـد أبي حـــاتم الـرازي والشَّهرستاني ، كان خارجياً في بداية أمره ، ثم صـار زُبيريـاً يدعـو لعبدالله بن الزبير ، ثم انقلب عليه ، إثر عـزله عن الكـوفة ، ومـلأ الكتاب الـذي أرسله اليه سبّاً وشتماً . وغدا شيعياً وكَيْسانياً يقول بإمامة محمد بن الحنفية[٢٣]، برغم أن ابن الحنفية تخوّف من المختار واشتمّ رائحة الانتهازية في ممشاه وأعلن البراءة منه .

إنتقائية صاحب الزنج

وهذا الضرب من السلوك المتقلب نجد نظيراً له ، مـع اختلاف نـوعيّ ، لدى صاحب الزَّنج . فعليّ بن محمد اعتبره بعض الدارسين خارجياً ، معوّلـين خصوصاً على الشعار الذي رفعه منـذ خروجـه وذلك عـلى حريـرة اتّخذهـا لواء وكتب عليهـا باللونـين الأحمر والأخضر (وقيـل : الأصفر)[٢٤] الآيـة الحـاديـة عشـرة بعد المـائـة من سـورة التـوبـة : « إن الله اشتـرى من المؤمنـين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً في التـوراة والإنجيـل والقـرآن ، ومَنْ أوفى بعهـده من الله فـاستبشـروا بِبَيْعكم

(٢٢) الطبري : ج٩ ص٤٩٨ و ٤٩٩ .
(٢٣) كتاب الزينة ، ق ٣ ص٢٩٤ و ٢٩٥ ــ الملل والنحل ، ق ١ ص١٣٢ .
(٢٤) مؤلف مجهول : العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، ج٤ ، ق١ ، ص١٥ .

الذي بايعتم بـه وذلك هـو الفوز العـظيم » . كذلـك كتب على اللواء المـذكور اسمه واسم أبيه ، فهو عليّ بن محمد ، دون أيّ إضافة[٢٥] . وهذه الآية ضرب صاحب الزَّنج جزءاً منها على نقوده الذهبية التي سكّها في عاصمته « المختـارة » سنـة ٢٦١هـ . كما أنـه كتب على هـذه النقـود : « ومَنْ لم يحكم بمـا أنـزل الله فأولائك هم الكافرون . ألا لا حكم إلا لله ولا طاعة لمن (عـدا) الله »[٢٦] . وهكـذا فالمؤمنـون الـذين يضحّـون بـأنفسهم فـإن مـآلهم الجنـة ، وهـو الفـوز العـظيم . وهـذا المعنى نـادى بـه الخـوارج الـذين دُعُـوا لهـذا السبب بـاسم « الشُّراة » أي أنهم الذين باعوا أنفسهم لله واشتروا الجنة ، كـما جاء في مـطلع الآية المتقدمة من سورة التوبة .

والخوارج أيضاً هم الذين خالفـوا عليّ بن أبي طـالب في قبولـه التحكيم ، « وقـالوا : لِمَ حَكّمتَ الـرجال ؟ ! لا حكم إلا لله »[٢٧] . والمسعـودي يميل إلى تـأكيد أن عـليّ بن محمد صـاحب هوى في الخـوارج ، وهو يـذكر أن صـاحب الزَّنج يقول في فاتحة خطبة له : « الله أكبر الله أكبر لا إلـه إلاّ الله ، والله أكبر ألا لا حكم إلاّ لله . وكان يرى الذنوب كلها شِرْكـاً »[٢٨] . وهذا الـرأي هو مـا ذهب إليه الخوارج من الأزارقة ، أتباع نافع بن الأزرق[٢٩] . وكـان أحد قـادة الثورة ، وهو عليّ بن أبان المهلّبي ، يخطب من على المنبر يـوم الجمعة لعليّ بن محمـد ، فيتـرحّم عـلى أبي بكـر وعمـر[٣٠] ، « ولا يـذكـر عثمـانَ ولا عليّاً في

(٢٥) الطبري : ج٩ ص٤١٣ .

(٢٦) J. Walker: «A Rare Coin of the Zanj», J.R.A.S. (1933), p.p. 651-652.

(٢٧) الشهرستاني : ق ١ ص١٠٦ .

(٢٨) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٥ ص١٠٣ .

(٢٩) الشهرستاني : ق١ ص١٠٩ و ١١٠ .

(٣٠) وهذا لم يمنع صاحب الزَّنج ، عندما استولى على « واسط » واستباحها سنة ٢٦٤هـ ، فقد لامه صِحابه المتقشفـون على حيـازته الجـواهر والأمـوال واستئثاره بهـا عقب استباحـة هذه المـدينة : =

خطبته ، ويلعن جبابرة بني العباس وأبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان »[٣١]. كما أن صاحب الزَّنج كان يصعد المنبر في « المختارة » « ويسبّ عثمانَ وعليّاً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة ، رضي الله عنهم ، وهذا هو رأي الخوارج الأزارقة ، لعنة الله عليهم »[٣٢].

إن الخوارج ، على اختلاف فِرَقهم ، قد أجمعوا على التبرّؤ من عثمانَ وعليٍّ ، وقد طعنوا في عليّ ولعنوه وخطّؤوه وكفّروه ، كما طعنوا في عثمان لأجل الأحداث التي تسبب فيها . وهكذا فإنه من الواضح أن صاحب الزَّنج كان يردد مقولات خارجية . ولا غرابة أن يستعين عليّ بن محمد بشعارات الخوارج ، لأنهم في الإسلام « جوّزوا أن تكون الإمامة في غير قريش . . . وجوّزوا أن لا يكون في العالم إمام أصلاً ، وإنِ احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً ، أو حراً ، أو نَبْطياً ، أو قُرَشياً »[٣٣].

والآية في سورة التوبة حول الذين باعوا أنفسهم لله يقاتلون في سبيله قد أحسن صاحب الزَّنج استغلالها ، ربما باستلهام أيضاً واستثمار لقول عمر بن الخطاب الشهير : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أُمّهاتهم أحراراً . فقد أعطى عليّ بن محمد تأويلاً سياسياً ذكياً وعملياً لخروجه ، إذ هو يدّعي ، كما مرّ بنا ، أنه لم يخرج طمعاً في الدنيا وإنما غضباً لله وليقضي على دابر الفساد . وعندما شرع صاحب الزَّنج يجمع الغِلمان العبيد وينتزعهم من مواليهم خطب فيهم ومنّاهم بالوعود العِذاب وقطع لهم العهد بالوفاء ، ثم أتى بمواليهم وقال

= « وذكروا له سيرة أبي بكر وعمر ، فقال : ليس فيهما قدوة » (الذهبي : سِيَر أعلام النبلاء ، ج١٣ ص١٣٤) .

(٣١) المسعودي : ج٥ ص١١٥ و ١١٦ .

(٣٢) ابن تَغْري بَرْدي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج٣ ص٤٨ .

(٣٣) الشهرستاني : ق١ ص١٠٦ ـ ١٠٨ .

لهم : « قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون الى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم ، وجعلتم عليهم ما لا يُطيقون » . وعندما أغراه هؤلاء الأسياد بالمال لقاء إطلاق عبيدهم ، فكان رد صاحب الزَّنج هو دعوة العبيد إلى جَلْد أسيادهم بسَعَف النخيل الأخضر الرطب : « فأمر غِلمانهم فأحضروا شَطْباً ، ثم بطح كل قوم مولاهم ووكيلهم ، فضُرب كل رجل منهم خمسمائة شَطْبة »(٣٤).

هل نخلص من هذا الكلام كله لنؤكد ، شأن المسعودي ، خارجيّة صاحب الزَّنج ؟ إنّ بمكنتنا ذلك بمقدار ما تتوافر لدينا الإمكانية الأخرى وهي أن عليّ بن محمد عَلَوَيّ نَسَباً أو ادّعاء ! ففي شعر عليّ بن محمد نبرة عَلَويّة واضحة ، وهو القائل في أحد الأبيات الناقمة المنددة بالعباسيين :

لستُ بابن الفواطم الزُّهْر إنْ لم أُقحم الخيلَ بين تلك العِراصِ(٣٥).

وقد تقلّب صاحب الزَّنج بين الأنساب العلوية مدّعياً النسب إثر الآخر . ولكن كما جاء عند المسعودي : « وأكثر الناس يقول إنه دعيّ آل أبي طالب ، يُنكرونه »(٣٦). ونادى صاحب الزَّنج بنفسه مهديّاً وسجّل هذا على نقوده التي سكّها(٣٧). ومَنْ يقلّب النظر في كتاب «جمهرة أنساب العرب» يدرك أن عَلَوية صاحب الزَّنج هي ادّعاء محض(٣٨). ولكن مَنْ قال إن الادّعاء لا ينفع في عالم السياسة ؟!

ولكننا نعتقد أن صاحب الزَّنج لم يكن على نحو صميم خارجياً ولا

(٣٤) الطبري : ج٩ ص٤١٤ .
(٣٥) الحُصْري : زَهْر الآداب وثمر الألباب ، ج١ ص٢٨٨ .
(٣٦) مروج الذهب ، ج٥ ص١٠٣ .
(٣٧) سبق أن عالجنا عَلَويّة صاحب الزَّنج في كتابنا : ثورة الزَّنج ، وقائدها عليّ بن محمد ، ص٢٨ ـ ٤٢ .
(٣٨) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٥٦ ـ ٥٨ .

عَلَوياً . فهو قد قبس من الخوارج والشيعة بشكل انتقائي ، لأن هؤلاء وأولئك كانوا يمثّلون جبهة المعارضة للعهد العباسي . وكان الخوارج مشهورين بتشددهم الديني وتَوْقهم إلى العدالة ، في حين أن الشيعة أُبعدوا عن المشاركة في السلطة مع أبناء عمهم العباسيين ولاقوا التنكيل الفظيع بحيث استثاروا عطف المسلمين ورعايتهم . وهذا المسعى لدى صاحب الزَّنج في الإفادة من تيارات عصره السياسية والعقائدية ، يكشف عن شخصية حاذقة . وههنا يبدو عليّ بن محمد مختلفاً عن المختار الثقفي . فهذا تنقّل بين العقائد والولاءات : فهو تارة خارجيّ ، وطوراً زُبيريّ ، وفي مرة ثالثة يغدو شيعياً كَيْسانياً . إنه يغيّر وجهة تفكيره كمن ينزع ثوباً ويلبس آخر ! في حين أن صاحب الزَّنج قام بعملية انتقائية ، قابساً من قاموس عصره السياسي والفكري . ولا داعي لطرح السؤال في ما إذا كان عليّ بن محمد مخلصاً أم انتهازياً في مسعاه ، ففي ميدان السياسة تختلط الألوان غالباً ، وتحمل الضرورة المرء المتعاطي لها على أن يقول ويعمل أحياناً ما ليس يبتغي أو يرغب !

حيرة واتهامات

يجب الإقرار أن صاحب الزَّنج قد حيّر الدارسين في معتقده ، بسبب أنهم لم يلتفتوا إلى منزعه الانتقائي الذكي . ولا أدلّ على هذه الحَيْرة من العبارة الواردة لدى الذهبي الذي يعتقد أن عليّ بن محمد يزعم العَلَوية ، وهو يرى أنه خارجيّ حَرَوْريّ ، وذلك نسبة إلى حَرَوْراء حيث اجتمع بهذا الموضع عند ظاهر الكوفة الخوارج الذين خالفوا الإمام علي إثر موقعة صِفّين . وإنْ لم يكن عليّ بن محمد حَرَوريّاً متستراً بهؤلاء الخوارج ، فهو دهريّ زنديق : « افترى ، وزعم أنه من وَلَد زيد بن عليّ العَلَوي . وكان مُنجّماً طرقيّاً[٣٩]

(٣٩) طَرَقَ الرجل : تكهّن بواسطة ضرب الحصى .

ذكياً ، حَرَورياً ماكراً ، داهية منحلاً على رأي فَجَرة الخوارج ، يتستر بالانتماء إليهم . وإلا فالرجل دهري فَيلسوف زنديق »[٤٠].

وكان للاتهام بالزَّندقة في ذلك العصر ، كما هو الحال للأسف في عصرنا الزاهر عبر بعض بقاع الأرض ، سوق رائجة . فكل مخالف للسلطة القائمة هو عدوّ الله وخائن وخبيث وزِنديق ومما شئت من النعوت الشائعة. ولا عجب أن نقرأ الجملة التالية عن صاحب الزَّنج : « ومن الناس مَنْ يطعن في دينه ويرميه بالزّندقة والإلحاد . وهذا هو الظاهر من أمره ، لأنه كان متشاغلاً في بدايته بالتنجيم والسحر والاصطرلابات »[٤١]. وأيّ ضرر في هذا ، ما دام أن التنجيم والسحر كانا عملاً شائعاً في قصور الخلافة ، وقصيدة أبي تمّام في فتح عَمُّورية وفي مدح المعتصم دليل على هذه الحقيقة ، وإنْ كان الشاعر ذهب أن المنجّمين الذين استشارهم المعتصم عند إقدامه على الزحف قد ردّوه عن إتيانه ولكنه مضى وفتح وانتصر ، فإذا « السيف أصدق إنباء من الكتب » ، أي كتب المنجّمين . أمّا الاصطرلابات فهي مفخرة العرب العلمية ، فهل أضحى الاشتغال بها مسبّة وعاراً ؟ !

وهذه الحَيْرة لدى المؤرخين مردّها أنهم لا يُعْنَوْن كفاية بالهدف الذي يسعى إليه صاحب الزَّنج ألا وهو السلطة ، وإنّ كل ما عدا ذلك فإنما هو وسيلة . ومَنْ رام السلطة في عصر كذاك ولدى رجل لا يشك المؤرخون في حذقه وذكائه ، فهو مغترف دون ريب من مَعين زمنه العقائدي . وصاحب الزَّنج كان من الفطنة بحيث إنه لم يقف عند عقيدة لا يتعداها . وقد أحاط سلوكه دائماً بهالة من الغموض أو القداسة أو الروحانية ، وذلك في محاولاته

(٤٠) سير أعلام النبلاء ، ج١٣ ص١٢٩ و ١٣٠ .
(٤١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، ج٨ ص١٢٩ .

المتعددة للاستيلاء على السلطة سواء قبل ثورة الزِّنج أو خلالها . والروايات المنبئة عن هذا السلوك لا نفتقر إليها ، وسوف نقتصر على إيراد بعضها ذي الدلالة . من ذلك مثلاً أن عليّ بن محمد عندما أتى البصرة للمرة الأولى من البادية في البحرين حيث أخفق ، زعم أن سحابة أظلّته بالبادية ، وهو في هذا يتمثل بالنبيّ ، ثم برقت السحابة ورعدت ، واتّصل صوت الرعد بسمعه مخاطباً إياه بالمصير الى البصرة[٤٢]. وذكر الذهبي : « وزعم أنه تكلم في المهد ، صيح به يا عليّ ! فقال : لَبّيْكَ » . وفي البادية جعل « يستغوي الأعاريب بنفوذ حيله وشعوذته ، واعتقدوا فيه أنه يعلم منطق الطير »[٤٣].

فعليّ بن محمد يسبغ على نفسه هالة الأولياء والشُّفَعاء والأنبياء . ولم يكن سلوك المختار الثقفي بعيداً عن هذا المنحى . وحتى في عصرنا العَلْماني الى حد كبير ، يعمد رجال السياسة والعظماء الى صياغة الهالات من حولهم بحيث يرى الناس صورهم على وجه القمر ! وربما رجل الصين الغارب « ماو » خير مثال على ما يسمى مرض عبادة الشخصية . وهذا كان يزعم لنفسه أنه اشتراكي أرثوذكسي لا يقبل أيّ تحريف أو مراجعة للفكر التقدمي الذي يعتنقه ، ومع ذلك فقد سعى إلى أن يكون الملايين من عَبَدته ، وغدا الى حين أسطورة ما لبثت أن هوت ! فكيف الحال بالناس في الزمن الماضي والجهل يستبد بهم وتصديقهم للكرامات شائع وعام ؟ يذكر الذهبي عن عليّ بن محمد أنه عند ذهابه إلى بغداد جعل « يستغوي الناس ويُضلهم ، فاستمال عدّة من الحاكة بمخاريقه ، والجَهَلة أسبق شيء إلى أرباب الأحوال الشيطانية » . ولكن صاحب الزِّنج كان « متواضعاً » في طموحه الروحي ، إذ « زعم أن النبيّ (ص)

(٤٢) الطبري : ج٩ ص٤١١ ــ مؤلف مجهول : ج٤ ، ق ١ ، ص١٥ .
(٤٣) سير أعلام النبلاء ، ج١٣ ص١٣٢ ، ١٣٤ .

مـا يمتـاز عليـه إلا بـالنبـوّة »[٤٤] . هـذا مـع العلم أنـه يقـول إن النبـوة عُـرضت عليه فكـان موقفـه الرفض ، وذلـك « لأن لهـا أعبـاء خِفْتُ ألّا أطيقَ حملها »[٤٥]! ونعثر في الطَّبَري على مجموعة من الروايات تتعلق باقتحام الزَّنـج البصرة واستيلائهم عليها ، وهي كلها ، كما مرّ بنـا ، تدور حـول محور الإلهام الربّاني والعون الإلهي والمَدَد الذي يختص به الله الأخيـار والملهَمين والأحبـار . فإذا بالملائكة تُسعف عليّ بن محمد وصحبه وتسدد خطاهم في إخراب البصرة ! ويبدو أن صاحب الزَّنج قد لاقى عند فتحه البصرة موقفاً حرجاً ، وكان في نفر يسـير من صحبه ، يقـابلون جمعاً كثيفـاً وخُيِّل لهم أن الهـلاك نصيبهم . « فلما قرب القوم مني قلت : أللهمّ إن هذه ساعة العُسْرة فأعنّي ، فرأيت طيوراً بيضاً تلقّت ذلك الجمع »[٤٦]. إن الحمامات البيض التي رأينـاها مـع المختار الثقفي تعود إلى الظهور بشكل آخر مع صاحب الزَّنج !

ثورة يونوس

وإذا كان هناك من مقارنة محتَمَلَة فكان الأولى بطه حسين في دراسته الآنفة الذكر أن يعقدها ما بين « يونوس » باعث الانتفاضة الصِقِلّيّة للعبيد ، وعليّ بن محمد صاحب الزَّنج وقـائدهم الى الثـورة . وهذه المقـارنة ليست في الأحـداث والبواعث والأسباب ، إذ إن نمط الإنتاج كان مختلفاً ما بـين صِقِلّيّة والبصـرة ، ولكنهـا مقارنـة في السلوكيّة الـروحية ومقـاربـة بينهـما . في صِقِلّيـة ذات أرض عجيبـة الخصوبـة قامت في العهد الـرومـاني أرستقـراطيـة محليّـة ذات بـذخ لا يوصف ، وقد استأثرت في القرن الثاني ما قبل الميلاد بمعظم الأراضي وأنشـأت

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) الطبري : ج٩ ص٤٩٩ .

(٤٦) الطبري : ج٩ ص٤٣٦ ، ٤٨٧ .

المُلكيّات الإقطاعية الواسعة، وذلك على نَسَق ما كان سائداً في المركز إيطاليا . وكانت المزروعات وتربية الماشية بخاصة عماد اقتصاد هذه الجزيرة عهدذاك . ولهذا جرى جلب العبيد إلى صقليّة بوتيرة متصاعدة وبأعداد هائلة بغية تشغيلهم في المراعي ، وتمّ دمغهم بالحديد المحمّى وَفْقَ سيّدهم التابعين له . ولقد كانوا بائسي الملبس والمأكل والمعاملة ، شأن ما كان عليه حال زَنْج البصرة بعدهم . لقد كانوا معتَبَرين أدوات ناطقة ، في حين أن البقر نصف ناطقة ، وعربات النقل بكماء[٤٧]! ولكي يوفّر الأسياد على أنفسهم تكاليف استمرار هؤلاء العبيد الرعاة في العيش فلقد دفعوهم وحثّوهم على القيام بالسرقة والنهب ، من غير أن يبالوا بالعواقب المترتبة على ذلك ، وبالضرر الذي أخذ يلحق بالمزارعين الصغار الذين استولى عليهم الهلع !

(٤٧) للإسلام موقف متميز في سعيه الى تحرير العبيد عن طريق العتْق سواء بدافع إنساني وتقرّباً من الله ومكافأة للعبد على استقامته ، أو بواسطة « الكتاب » أو « المكاتبة » وهي اتفاق مكتوب على مبلغ من المال يدفعه العبد أقساطاً فيشتري به نفسه وذلك كما جاء في الآية ٣٣ من سورة النّور (٢٤) : « والذين يبتغون الكتابَ مما ملكت أيمانُكم فكاتبوهم إنْ علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » . كما أن الدين الإسلامي يوجب الإعتاق ، أي يفرضه ، في حالات أربع محددة : كأن يقتل المسلم خطأ ، فيحتاج عندها الى تحرير رَقَبة مؤمنة الى جانب الدية الى أهل القتيل . كما أن كفّارة الحِنْث باليمين هي تحرير رَقَبة أيضاً . ومَنْ يُعِدْ زوجته الى عصمته بعد ظِهار ، أي طلاق ، فيجب عليه تحرير رقبة . ومن أفطر رمضان كانت كفّارته فك رقبة أي تحريرها. وهي أحكام صريحة وردت في سُوَر مختلفة من القرآن.

وليس المجال ههنا للتوسع في موقف الإسلام من موضوع العبيد ، وإنما نرمي الى الإشارة أنه برغم موقفه المتميز على صعيد معاملة العبيد والحثّ صراحة على تحريرهم فإن رجال الفِقْه ، كما تذكر مستشرقة إيطالية ، اعتبروا العبد « شيئاً » مملوكاً أو «سلعة » تسري عليها عمليات البيع والوهب والتأجير والتوريث . وهكذا نجد العبد ، بالنسبة الى الممتلكات ، يقف إلى جانب الحيوانات . ولهذا كان المحتسب مكلّفاً بالسهر على أن يعامل السيد بالحُسنى عبيده وحيواناته معاً . كما أن الأمة عندما تلد فإن طفلها هو « غلّة » من حصة مالكها ، على شاكلة نتاج الماشية (L. Veccia Vaglieri: article «Abd», Encyclopédie de l'Islam, t.1 , p. 27) .

ووقف يـونوس عـلى رأس عبيد صقليّـة ، وهو في الأصـل من « أفاميـا » بسـوريـا ، ولهـذا أطلق عـلى العبيـد الـذين مشَــوْا وراءه في انتفـاضتــه اسم السوريين ، كما أن الدين الذي بشّر به أصحابه قائم على إلهة سورية تدعوه إلى الصمـود وتقوّي في نفسـه أمل التحـريـر . واختلطت عنـد يونـوس صـوفيتـه وعقائديته بمطامحه الذاتية ، وغدا تأثيره ملموساً لدى رفاقه في الإذلال والعبودية الذين شرع يقصّ عليهم منـاماتـه ورؤاه ويدّعي أمـامهم أنه عـلى صلة بالعـالم الإلهي . لقد استعان بالقناعات الدينية للتأثير في رفاقه العبيد ، وكـان مأخـوذاً بأنه رسول الإرادة الإلهية لتحـريرهم وأنـه سيغدو ملكـاً عليهم ! لقد انـطلقت الثورة في صقليّة (١٣٩ ـ ١٣٤ ق.م.) بأربعمائة من العبيد مسلحين بالمناجل والفؤوس والأسيـاخ ، ولكنهـا كَبُـرت وعَـظُمت وصمـدت في وجـه السلطة ، بحيث تعذّر على الحكـام المحليين السنـويين الـذين توالَـوْا على الجـزيرة خـلال خمس سنوات تصفيتها ، واضطر عندهـا مجلس الشيوخ في رومـا أن يبعث أحد القنـاصـل للقيـام بـالمهمـة العسكـريـة . وشـرع العبيـد ينظّمـون صفـوفهم وأحوالهم ، فالسماء تحميهم والوعود الإلهية الى جـانبهم . وصار يـونوس ملكـاً تحت اسم أنطيوخوس ، تحقيقاً للنبـوءة الإلهية ، وأحـاط نفسه بهيئـة من رفاقـه الحاذقين . لقد كانوا مصممين على إقامـة دولة في صقليّـة تعمل لصـالح عبيـد الأمس ، ولهذا فإن سكـان العاصمـة الواقعـة في وسط الجزيـرة « هِنّا » الـذين كانوا أحراراً تحوّلوا إلى العبودية وخضعوا مقيّدين للعمل في صناعة الأسلحـة ، في حين أن الأحرار منهم الذين لم يكونوا مؤهلين لهذا العمل لاقوا حتفهم.

إن خـطوات يونـوس في التنظيم ، وضم العبيـد في الجـزيـرة الى صفّـه ، والحؤول دون النهب الفـردي ، وتأمـين إمدادات المحاصيل ؛ كلهـا مبـادرات تذكّرنـا بما أقـدم عليه صـاحب الزّنـج بعدهـا من تصرفـات شبيهة . وتـوصّل يـونوس إلى إعـداد جيش يكاد يكـون نظاميـاً ، وقد بلغ عـدده حداً عـظيماً إذ

قارب المائتي ألف مقاتل ، وسيطرت ثورة العبيد على معظم أرجاء الجزيرة . ولهذا كان صدى الثورة مسموعاً في ذاك العصر ، وشرع العبيد في إيطاليا واليونان يتململون متأثرين بأحداث صقليّة . وكان القمع حيالهم شديداً ، وفي منطقة « اللاتيوم » بإيطاليا حيث تقع روما تمّ صلب أربعمائة وخمسين عبداً . ولقد احتاجت روما إلى ثلاثة قناصل متتالين لتقضي أخيراً على يونوس ، متكبدة على نحو ما ، ما تكبدته الخلافة العباسية بعدها في القضاء على صاحب الزَّنج . وهذا الجهد العسكري الذي بذلته روما ولم يسبق لها أن تحمّلته ضد العبيد ، سيكون هو حال الخلافة العباسية مع ثورة الزَّنج .

لقد أتاح لنا كتاب جان ـ پول بريسّون(٤٨) الاطلاع على أحداث ثورة يونوس في صقليّة ، وكانت نموذجاً سابقاً على ثورة سبارتاكوس . وهي كما رأينا تستدعي الى الذاكرة سواء في سلوكية يونوس السياسية ـ الميتولوجية ، أو في تنظيماته ومبادراته ، ما سوف يكون عليه وضع عليّ بن محمد قائد ثورة الزَّنج ، مع الأخذ في الاعتبار طبعاً اختلافات العصر والمكان ونمط الإنتاج وخصوصية الإمبراطورية الرومانية عن الإمبراطورية العربية الإسلامية . والملاحظ أنه في كلتا الثورتين فإن العامل المساعد لتدافع الأحداث وانتصار العبيد هو تجمّعهم بأعداد كبيرة في حيّز واحد . فكما حشد أثرياء صقليّة العبيد هناك للعمل في تربية الماشية ، فإن أثرياء البصرة جلبوا العبيد السُّود من الساحل الشرقي لأفريقيا وحشدوهم للعمل في استصلاح الأراضي وتنقيتها من الملح المترسّب فيها . ففي كلا المثالين لم يكن العبيد متفرقين مشتتين ، وإنما هم « مادة » جاهزة للتكتل والاشتعال .

(٤٨) Brisson: Chapitre 5, p.p. 55-77.

المصادر والمراجع

١ ــ الطَّبَري (ت ٣١٠هـ) : تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف بتاريخ الطَّبري (١١ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سلسلة « ذخائر العرب » (٣٠) ، دار المعارف بمصر ٦٠ ـ ١٩٦٩ ، ١٩٧٧ .

٢ ــ أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢هـ) : كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، ق٣ ، تحقيق : عبدالله سلّوم السامَرّائي ، وزارة الإعلام ، بغداد ١٩٧٢ (وقد جاء هذا القسم الثالث من الكتاب على شكل ملحق لمؤلَّف للمحقق عنوانه : الغلوّ والفرق الغاليّة في الحضارة الإسلامية) .

٣ ــ المسعودي (ت ٣٤٥هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر (٧ أجزاء) ، طبعة بربيه دي مينار وباڤيه دي كرتاي ، عُني بتنقيحها وتصحيحها ووضع جزءين من الفهارس العامة : شارل پلّا ، منشورات الجامعة اللبنانية ، قسم الدراسات التاريخية (١١) ، بيروت ٦٦ ـ ١٩٧٩ .

٤ ـ أبو هلال العسكري (ت حوالى ٤٠٠هـ) : الأوائل (قسمان) ، تحقيق : محمد المصري ووليد قصّاب ، سلسلة « إحياء التراث العربي » (٤١ و٤٢) ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٧٥ .

٥ ــ الحُصْري (ت ٤١٣هـ) : زَهْر الآداب وثمر الألباب (جزءان) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٣ .
٦ ــ عبدالقاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) : الفَرق بين الفِرق ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر ، القاهرة (؟) .
٧ ــ ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، سلسلة « ذخائر العرب » (٢) ، ط٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .
٨ ــ مؤلف مجهول (من القرن الخامس الهجري (؟)) : العيون والحدائق في أخبار الحقائق (ج٤ (٢٥٦ - ٣٥٠هـ) ، قسمان) ، تحقيق : عمر السّعيدي ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ٧٢ - ١٩٧٣ .
٩ ــ الشَّهْرَسْتاني (ت ٥٤٨هـ) : المِلل والنِّحل (قسمان) ، تحقيق : محمد ابن فتح الله بدران ، ط ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٦ .
١٠ ــ نَشْوان الحِمْيري (ت ٥٧٣هـ) : الحُوْر العِينْ ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنّى ببغداد ١٩٤٨ .
١١ ــ ياقوت (ت ٦٢٦هـ) : معجم البلدان (٥ مجلدات) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (؟) .
١٢ ــ ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ) : شرح نهج البلاغة (٢٠ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ٥٩ - ١٩٦٤ .
١٣ ــ ابن الطِّقْطَقَى (ت ٧٠٩هـ) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦ .
١٤ ــ أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) : المختصر في أخبار البشر (٧ أجزاء) ، دار

الكتاب اللبناني ، بيروت (؟) .
١٥ ــ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) : سِيَر أعلام النبلاء (١٧ جزءاً حتى تاريخه) ، أشرف على تحقيقه : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ٨١ - ١٩٨٣ .
١٦ ــ ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) : فوات الوفيات والذيل عليها (٤ مجلدات)، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت ٧٣ - ١٩٧٤ .
١٧ ــ ابن خَلْدون (ت ٨٠٨هـ) : كتاب العِبَر وديوان المبتدا والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون (٧ مجلدات) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ٥٦ - ١٩٥٩ .
١٨ ــ ابن تَغْري بَرْدي (ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٦ جزءاً) ، سلسلة « تراثنا » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٦٣ - ١٩٧٢ .
١٩ ــ السُّيُوطي (ت ٩١١هـ) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط ٢ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٩ .
٢٠ ــ J. Walker: «A Rare Coin of the Zanj», J.R.A.S. (The Journal of the Royal Asiatic Society) (1933), p.p. 651-655.
٢١ ــ طه حسين : « ثورتان » ، مجلة « الكاتب المصري » م٢ ، ع ٨ (مايو ١٩٤٦) ، ص٥٥٣ - ٥٧٣ ــ أو راجع كتاب « ألوان » ، ط ٣ ، ص١٦٤ - ١٨٧ ، دار المعارف بمصر (؟) .
٢٢ ــ Jean-Paul Brisson: Spartacus, Collection «Portraits de l'Histoire» (21), Le Club Français du Livre, Paris 1959.
٢٣ ــ L. Veccia Vaglieri: article «Abd», Encyclopédie de l'Islam (nouvelle édition), t.1, p.p.25-42.

٢٤ ــ أحمد عُلَبي : ثورة الزَّنج ، وقائدها عليّ بن محمد ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١ .

القسم الثاني

قائد وشاعر

الفصل الرابع

صاحب الزّنج «الشاعر»

حديثنا ههنا عن شاعرية عليّ بن محمد « صاحب الزَّنج » . ولا بأس من التنبيه أن هناك شاعراً آخر يحمل الاسم نفسه ولكن لا دخل للزَّنج معه وليس بصاحبهم ، وهو عليّ بن محمد الحِمّاني . وكان معاصراً لمن نُعنى به ، إذ إن وفاته كانت سنة ٣٠١هـ[1] ، وكان علوياً يقطُن الكوفة بين بني حِمّان . وبنو حِمّان قبيلة من تميم[2]، نزلوا الكوفة[3]، وقد حلّ بينهم فكانت نسبته إليهم وغلبت عليه[4].

(١) ابن عِنَبة : عُمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، ص٣٠١ هامش .

(٢) السُّيُوطي : لُبّ اللُّباب في تحرير الأنساب ، ص٨٣ .

(٣) السَّمعاني : الأنساب ، ج٤ ص٢٣٦ ، ٢٣٨ ــ ابن الأثير : اللُّباب في تهذيب الأنساب ، ج١ ص٤٤٨ و ٤٤٩ . ولقد جاء لدى ياقوت أن حِمّان « محلّة بالبصرة سُمّيت بالقبيلة ، وهم بنو حِمّان بن سعد بن زيد مناة بن تميم . . . وقد سكن هذه المحلّة من نُسب إليها وإنْ لم يكن من القبيلة » (معجم البلدان ، م٢ ص٣٠٠) . وهكذا فإن «حِمّان» غدت اسم مكان ، ويؤكد هذا ما قال عليّ بن محمد الحِمّاني في شعره بصدد امرأة :

وقد أبصرتْ « حِمّانَ » من بعد أُنسها ... بنا ، وَهْيَ منا مقفرات دوائرُ

(المَرْزُباني : الموشّح ، ص٥٤٣ و ٥٤٤) .

(٤) البَكْري : سِمْط اللآلي ، ج١ ص٤٣٩ ــ ابن عنبة : عمدة الطالب ، ص٣٠٠ .

علي بن محمد « الحِمّاني »

وكان الحِمّاني وجيه العلويين لعهده في الكوفة ، بحيث يقول المسعودي فيه : « وكان عليّ بن محمد الحمّاني نقيبهم بالكوفة وشاعرهم ومدرّسهم ولسانهم ، ولم يكن أحد بالكوفة من آل علي بن أبي طالب يتقدمه في ذلك الوقت »(٥). وقد أقدم الموفّق ، أخو الخليفة المعتمِد ، على حبسه ذات مرة وأطال ، وذلك على الأرجح خوفاً من المنزلة التي كان يحظى بها بين العلويين. « وهو شاعر فحل من مشهوري شعراء الطالبيين »(٦). فهو من عَقِب محمد بن زيد الشهيد .

والحمّاني صاحب ديوان(٧)، وهو ديوان مشهور(٨)، وقد ظل متوافراً حتى القرن التاسع الهجري ، ولكننا لا ندري اليوم عنه شيئاً . ولقد قام محمد حسين الأعرجي بجمع كل ما وقعت عليه يده في المصادر من شعر الحِمّاني الذي تنوّعت أغراضه ، لكنه تميّز بخاصة ، في نظر دارسه « الأعرجي » ، بالنَّفَس السياسي والعقائدي الذي طغى على شعره ، وذلك في بيئة الكوفة التي كانت مرتعاً للتشيّع وحضناً(٩). ولا ريب أن النزعة الشيعية الصارمة واضحة المعالم في شعر الحمّاني ، ولكنها مشابهة في نهاية المطاف لأي شاعر آخر شيعيّ الهوى ، وذلك من حيث المعاني والتطلعات . ونحن إذ نضع الضوء على هذه الناحية نتناسى الحمّاني الإنسان والشاعر وصاحب الهمّ الحياتي والفنان . إن قراءة ديوان الحمّاني الذي جمعه الأعرجي نفسه تكشف لنا أن خير ما عنده

(٥) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٥ ص٦٤ .
(٦) ابن عنبة : ص٣٠٠ .
(٧) المرزباني : الموشّح ، ص٥٤٣ و ٥٤٤ .
(٨) ابن عنبة : ص٣٠١ .
(٩) ديوان عليّ بن محمد الحِمّاني العلوي الكوفي ، صنعة : محمد حسين الأعرجي ، مجلة « المورد » م٣ ، ع ٢ (١٩٧٤) ، ص١٩٩ ـ ٢٢٠ . الرأي المذكور أعلاه في المقدمة ، ص٢٠٠ .

ليس تشيّعه ربما أو ليس قاصراً عليه ، فهو يتكلم على الشباب والمشيب كثيراً ورحيل الغانيات ، وهو صاحب البيت الرقيق :

وقد كنتَ تملِكُ ألحاظهنّ   فصرن يُعرنك لَحْظاً مُعارا .

وهو شغوف بالقوام اللينّ والفم العذب والعيون الجانية ، ويشكو الصدود والعطف الضائع . ويصف أيام الخَوَرْنَق والسَّدير وقصر أبي الخصيب ، كما يصف وجوه الحِسان والفَرَس والليل والهيفاء ومجلس السرور حيث « وتطربني مثقفة اليدين » . وله رد ناعم في الإخوانيات ، وشعر لطيف حول مبارحة الديار . فهو بلا شك شاعرية مغموطة تستحق العناية .

علي بن محمد « ابن بسّام »

والحِمّاني الذي نشأ في بيت يتعاطى الشعر ، هو أبو الحسين عليّ بن محمد ابن جعفر ، في حين أن هناك شاعراً آخر هجّاء سليطاً ماجناً ظريفاً مليحاً خبيثاً ، وكان من أهل بغداد ومعاصراً للاثنين ، أي لصاحب الزّنج وللحِمّاني ، اشتهر بابن بَسّام أو البَسّامي[١٠]، وكانت وفاته سنة ٣٠٢هـ ، وهو أبو الحسن العَبَرْتَائي[١١] عليّ بن محمد بن نصر . ولكن هذا الأخير كانت نشأته في بيت كتابة[١٢]، وتولّى جدّه ، نصر بن منصور ، ديوان الخاتم

(١٠) البَسّامي نسبة الى بَسّام ، وهو أحد جدوده (السّمعاني : ج٢ ص٢١٩ ـ ابن الأثير : اللّباب ، ج١ ص١٦٨ و ١٦٩ .

(١١) نسبة الى عَبَرْتَا ، قرية كبيرة ناحية النّهروان تقع بين بغداد وواسط (ياقوت : معجم البلدان ، م٤ ص٧٧ و ٧٨) . وهي نسبة غير قياسية ، لأن النسبة إليها عَبَرْتي . ومنها نجم الأسعد بن نصر بن الأسعد العَبَرْتي ، وهو نحويّ كان يقرِىء النحو ببغداد ، وكانت وفاته سنة ٥٧٠هـ (ياقوت : معجم البلدان ، م٤ ص٧٨) . على أن السّمعاني يجعل النسبة الى عبرتا «عبرتايي» (الأنساب ، ج٨ ص٣٦٤) .

(١٢) كان ابن بسّام البغدادي صاحب تصانيف ، منها : أخبار عمر بن أبي ربيعة الذي جاء عنه لدى ابن خَلّكان : « ولم يستقصِ أحدٌ في بابه أبلغ منه » (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، =

والنفقات والأزِمّة في خلافة المعتصم . وقد تقلّد ابن بسّام زمن المعتضِد البريد والجسر بِجُند قِنَّسْرين والعواصم من أرض الشام[13]، وذلك استرضاء وصلة وقطعاً للسانه الفلتان . ولم يكن ابن بسّام يوفّر في هجائه أحداً ، حتى أهله وأباه وإخوته ، ولم يسلم من فَلَتات لسانه الوزراء والأمراء والخلفاء أيضاً[14]. وقد ذكّرتنا سيرته وهجاؤه الظريف بسيرة ابن الرُّومي وهجائه الشهير ، ولهذا لا نعجب أن نقرأ لدى ياقوت هذه العبارة : « وكان يصنع الشعر في الرؤساء وينحَلُهُ ابنَ الرُّومي وغيره »[15]. ومات بعد أن نيّف على السبعين[16]، إثر حياة حافلة بالهجاء والظَّرف . وحبّذا لو يكون ابن بسّام وشعره المجموع شأناً

= م٣ ص ٣٦٥ و٣٦٦) ، أخبار الأحوص ، مناقضات الشعراء ، وغيرها . على أن طاش كبري زادَه ينسب إلى ابن بسّام كتاب « الذخيرة » (مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ج١ ص٢٣٧) ! وهو طبعاً وهمٌ كبير ، لأن هذا الأثر النفيس هو لابن بسّام الشَّنْتَريني الأندلسي (ت ٥٤٢هـ) صاحب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » الذي حققه ــ أطال الله في عمره وأعزّنا بأفضاله العلمية ــ إحسان عبّاس في ٨ مجلدات ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٩ .

(١٣) جاء أن الوزير القاسم بن عُبيدالله قد ولاّه على مضض « بريد الصَّيْمَرَة ولم يزل عليه الى آخر أيام المعتضد » (البِيْروني : الجماهر في معرفة الجواهر ، ص٦١) . وهذه المعلومة يرددها ياقوت (معجم الأدباء ، ج١٤ ص١٤٥) . والصَّيْمرة موضعان : أحدهما عند البصرة على فم نهر مَعْقل وتضم عدة قرى تحمل هذا الاسم ، والمكان الآخر بين ديار الجبل وخوزستان (ياقوت : معجم البلدان ، م٣ ص٤٣٩) . وفي سنة ٢٥٨هـ حلّت بالصَّيمرة هدّتان عُظْميان فتساقطت الحيطان ، وذهب قرابة عشرين ألفاً من القاطنين فيها ضحايا (حمزة الأصبهاني : تاريخ سنيّ ملوك الأرض والأنبياء ، ص١٢٣ ــ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، م٧ ص٢٥٦ و ٢٥٧) .

(١٤) المسعودي : مروج الذهب ، ج٥ ص١٩٧ ، ٢٠٢ ــ الحُصْري : زَهْر الآداب وثمر الألباب ، ج٢ ص٦٧٠ و ٦٧١ ــ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، م١٢ ص٦٣ ــ ياقوت : معجم الأدباء ، ج١٤ ص١٣٩ - ١٥٢ ــ ابن خلّكان : وفيات الأعيان ، م٣ ص٣٦٣ - ٣٦٦ ــ الذهبي : سِيَر أعلام النبلاء ، ج١٤ ص١١٢ و١١٣ ــ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات والذيل عليها ، م٣ ص٩٢ و٩٣ .

(١٥) معجم الأدباء ، ج١٤ ص١٤٠ .

(١٦) طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ، ج١ ص٢٣٧ .

جديداً طريفاً لباحث جامعيّ ينقّب عن موضوع لأطروحة مبتكرة يكتبها ، بخاصة وأن ابن بسّام كان مشهوراً لزمنه وكان من رُواته الصُّولي[١٧] .

وهؤلاء الثلاثة ، صاحب الزَّنج والحِمّاني وابن بَسّام ، عاشوا في عصر واحد ، وحملوا اسماً واحداً هو عليّ بن محمد ، ولم يكن ليميّزهم سوى النسبة أو اللقب . ثم لم يكن أحدهم يجهل الآخر ، بدليل أن هناك أبياتاً لعليّ بن محمد الحمّاني يتهجم فيها على « علويّ البصرة » .

يقول الحمّاني ، أي عليّ بن محمد العلَويّ الزيديّ الكوفيّ في صاحب الزَّنج :

يقول لك ابنُ عمّك من تُعيذُ	لِتَبَّتْ أو لنوحٍ أو لهودِ ؟
لهجتَ بنا بلا نَسَبٍ إلينا	ولو نُسب اليهودُ إلى القرود
لحقتَ بنا على عَجَلٍ كأنّا	على وطن وأنت على البريد
فَهَبْنا قد رَضِيْناك ابن عمٍّ	فَمَنْ يرضى بأحكام اليهود ؟ [١٨] .

ونعثر كذلك في مخطوطة تحت عنوان « تاريخ » متوافرة في المكتبة الوطنية بباريس[١٩] ، ومنسوبة إلى المدعو مسلم بن محمد بن جعفر اللحجي من رجال القرن السابع الهجري ، على أبيات يتهجم فيها الحِمّاني على صاحب الزَّنج بشكل مقذع لادّعائه النَّسب العَلَوي . ونحن لم نطّلع بعدُ على هذه الأبيات ، ولكن ربما هي المذكورة أعلاه مضافاً إليها . كما تحوي المخطوطة نفسها أيضاً

(١٧) السّمعاني : ج٢ ص٢١٩ .
(١٨) نَشْوان الحِمْيَري : الحُوْر العِيْن ، ص٢٠٢ .
(١٩) Pseudo Muslim Al-Lahgi: Tarih, Manuscrits de la Bibliothèque Nationale, Paris, fonds arabe, n° 5982, f. 173 a-b, 174 a.
Voir à ce propos:
Carl Brockelmann: Geschichte der Arabischen Litteratur (GAL), supplementband 1, p. 587.

سبعة أبيات من شعر صاحب الزَّنج[٢٠] . ثم كيف لم يعرف أحدهما الآخر وقد جاء في « عُمدة الطالب » عن صاحب الزَّنج : « وقد نَحَلَ كثيراً من أشعار عليّ بن محمد الحِمّاني »[٢١] !

علي بن محمد « صاحب الزنج »

المهم أن مصادرنا لا تُنكر على صاحب الزَّنج شاعريته ولا تشكك فيها . « وكان صاحب الزَّنج مع شدة قلبه وقوة نفسه فصيح اللسان شاعراً »[٢٢] . ويُقرّ أبو بكر الصُّولي (ت ٣٣٥هـ) ، وهو الذي كان « أحد الأدباء المتقدمين في الآداب والأخبار والشعر والتاريخ »[٢٣] ، لصاحب الزَّنج بالموهبة والسليقة فيقول : « وله شعر حسن مطبوع »[٢٤] . وهناك معلومة تقدَّم ذكرها تقول إن صاحب الزَّنج نَحَلَ كثيراً من أشعار الحمّاني ! في حين جاء عند المَرْزُباني (ت ٣٨٤هـ) عن صاحب الزَّنج : « تُروى له أشعار كثيرة في البسالة والفتك . وسمعت ابن دُرَيْد يذكر أنها أو أكثرها له ، لأنه كان يقولها وينحَلُها غيرَهُ ، وقرِئَتْ عليه بحضرتي فاعترف بها »[٢٥] .

(٢٠) Alexandre Popovic: La Révolte des Esclaves en Irak au IIIe/IXe siècle, p.p. 27,74.

(٢١) ابن عنبة : ص٢٩٣ .

(٢٢) ابن عنبة : ص٢٩٢ .

(٢٣) الصَّفَدي : الوافي بالوفيات ، ط٢ ، ج٥ ص١٩٠ . واشتهر الصُّولي بلقب « الشِّطرنجي » لأنه « كان ألعب أهل زمانه بالشِّطْرنج ويُضرب به المثل » (راجع ترجمته لدى ــ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٥ ص٣٠١ و٣٠٢) . ويذكر الصَّفدي أنه « كان أوحد زمانه في لعب الشَّطرنج » ، وقد نازل الماوردي المتقدم في هذه اللعبة التي تتطلب ذكاء ومهارة ، لكنه هزمه شر هزيمة ، برغم التشجيع الكبير الذي بدر من الخليفة المكتفي حيال الماوردي (الوافي بالوفيات ، ج٥ ص١٩١ و ١٩٢) .

(٢٤) الحُصْري : جمع الجواهر في المُلَح والنَّوادر (وطُبع سابقاً باسم : ذيل زَهْر الآداب) ، ص١٩٠ .

(٢٥) المرزباني : معجم الشعراء ، ص١٤٨ .

إن صاحب الزَّنج ، وَفْقَ ابن دُريد ، كان ينحَلُ الكثير من شعره غيرَهُ ، أي أنه يقوله وينسبه إلى غيره . في حين ورد معنا منذ قليل مع ابن عِنَبة أن صاحب الزَّنج « قد نَحَلَ كثيراً من أشعار عليّ بن محمد الحمّاني »[٢٦]، بمعنى أنه نسب إلى نفسه هذا الكثير وأضافه إليه[٢٧]. ونحن نعرف أن الحمّاني قد هجا صاحب الزَّنج بسبب زعمه أنه عَلَويّ ، ولا ندري إذا تعرّض له بسوء بصدد انتحاله شعرَهُ ، إذا صحّ هذا الانتحال أصلاً . وذلك أن صاحب الزَّنج لا ريب في شاعريته أولاً ، ولأنه كما مرّ بنا في رواية المرزباني كان ينحَلُ غيرَهُ شعرَهُ ! وقضية النَّحْل هذه كانت شائعة في ذلك الزمن ، ويُحكى عن الصّولي أنه قال أمام أحد الوزراء بيتين من الشعر ، فادّعى أحد الكتّاب وكان حاضراً أنهما له . « فعاتبتُه ، فقال : هِبْهما لي ، فقلت : أخاف أن تُمتحن بقول مثلهما فلا تُحسن »[٢٨]!

ولكن ما يُحرجنا في الموضوع ليس قضية النَّحْل ، إذ لا خلاف على شاعرية صاحب الزَّنج والحِمّاني ، بيد أننا عندما سنعمد بعد هذه التوطئة الدراسية الى جمع شعر صاحب الزَّنج سنضطر الى أن نتوقف عند أبيات وقفة المتسائل أو المتحيّر أو المرجّح ، لا ندري هل هي على التخمين أو التحقيق للأول أم للآخر ، بسبب أن المصادر تذكر أحياناً عبارة : قال عليّ بن محمد العَلَوي ، دون تخصيص . وبما أن الحمّاني علويّ بالتأكيد ، وصاحب الزَّنج علويّ بالتأكيد أو بالادّعاء ، فالعبارة إذا لم تكن مقرونة بلقب الحمّاني ، أم علويّ البصرة أم صاحب الزَّنج أم ربما البُرْقُعيّ ـ كما يأتي البِيْروني على هذا

(٢٦) عمدة الطالب ، ص٢٩٣ .
(٢٧) ابن منظور : لسان العرب ، مادة « نحل » ، م١١ ص٦٥٠ و ٦٥١ .
(٢٨) الصّفدي : ج٥ ص١٩١ .

اللقب لصاحب الزَّنج[٢٩] ! ــ أو المُبْرَقع[٣٠]، أم أحد النعوت القبيحة التي رُمي بها قائد الثورة ، فلا يمكن عندها أن نفرّق ونجزم لأيٍّ من هذين الشاعرين هي الأبيات ؟ خصوصاً أن كلاً من الشاعرين قد نظم في الكثير من الأغراض الشعرية الشائعة ، ولم يقتصر شعرهما على غرض دون غيره .

ابن دريد وصاحب الزنج

وأبو بكر محمد بن الحسن بن دُريد (ت ٣٢١هـ) من مواليد البصرة ، وقد سكن ، بعد تجوال طويل لطلب العلم والأدب واللسان ، بغداد التي كان يتردد عليها بالإقامة بعد أسفاره[٣١]، ولكنه عندما أسنّ ظلّ بها حتى وافته منيّته بها ، بعد أن عمّر وقارب المائة[٣٢]. وبالتالي فينبغي أن يكون ابن دريد قد التقى بعليّ بن محمد قبل أن يغدو صاحب الزَّنج ، أي عندما قَدِمَ عليّ بن محمد بغدادَ، عقب فراره من البصرة حيث أخفق خلال المرة الأولى إبّان سنة ٢٥٤هـ في الدعوة الى نفسه واستثمار الخلاف الأهلي الناشب المستحكم طَوَال ثلاث سنوات بين قبيلتي البصرة الهامتين : البِلاَليّة والسعديّة . وأمضى عليّ ابن محمد عاماً في بغداد حيث وافاه بعض أعوانه الذين كسبهم في محاولاته السابقة للاستيلاء على السلطة[٣٣]. وهكذا ينبغي أن يكون ابن دريد قد التقى بعليّ بن محمد خلال تلك المرحلة وسمع بعض شعره بحضرته ، وقد أقرّ الشاعر بنسبتها إليه .

ولكن ابن دريد يدّعي لنفسه شيئاً خطيراً ، فهو يقول عن شعر صاحب

(٢٩) البِيْروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص٣٣٢ .
(٣٠) ابن عبدالبَر : بهجة المجالس وأنس المُجالس ، وشحذ الذاهِن والهاجس ، ق١ ص٤٧٦ .
(٣١) أبو الفرج النَّهرواني: الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، ج١ ص٨٥ .
(٣٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، م٢ ص١٩٥ ــ الذهبي : ج١٥ ص٩٦ .
(٣٣) الطَّبري : تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، ج٩ ص٤١١ و٤١٢ .

الزّنج إنه نظم أكثره ! ينقل لنا أبو بكر الصّولي : « وزعم أبو بكر بن دريد أنه عمل له أكثره ، وما أرى هذا يصحّ ، لأنه لا يشاكل طريق ابن دريد »[٣٤]. من الصحيح أن الذهبي يقول عن ابن دريد : « ولأبي بكر شعر جيّد »[٣٥]، ولكن هذا الشعر يصدق فيه حكم أبي بكر محمد الأسدي : « كان يقال : إن أبا بكر بن دريد أعلم الشعراء ، وأشعر العلماء »[٣٦]. أمّا أنه «أشعر العلماء» فالعلماء أصلاً ليسوا بشعراء سوى من باب رفع العتب أو سوسة المهنة أو من باب التدريب ولكي يقال : وكان يتعاطى الشعر أيضاً ! وراجع بعض شعر محمد بن دريد ليأتيك صدق مقالنا[٣٧].

ورواية أبي عُبيدالله المرزباني السابقة الذكر نقلاً عن ابن دريد ينبغي أن تكون صحيحة، لأن المرزباني كان من جملة الذين أخذوا عن ابن دريد علاّمة زمانه[٣٨]. وكان مضرب المثل في قوة الحافظة عجيبها ، بحيث حفظ ديوان الحارث بن حِلِّزة بأسره في جلسة واحدة[٣٩] ! « قال أحمد بن يوسف الأزرق : ما رأيت أحفظ من ابن دريد ، ولا رأيته قُرىء عليه ديوان قط إلا وهو يسابق الى روايته ، يحفظ ذلك »[٤٠]. ولهذا كله فشهادة هذا الأديب اللغوي العلاّمة في شعر عليّ بن محمد لها شأنها ، ثم إن المرزباني صنّف كتباً كثيرة جداً في أخبار الشعراء بلغت آلاف الأوراق[٤١].

(٣٤) الحصري : جمع الجواهر ، ص١٩٠ .
(٣٥) سير أعلام النبلاء ، ج١٥ ص٩٦ .
(٣٦) الخطيب البغدادي : م٢ ص١٩٦ .
(٣٧) القِفْطي : المحمَّدون من الشعراء وأشعارهم ، ص٢٧٩ ـ ٢٨٢ .
(٣٨) النّهرواني : الجليس الصالح الكافي ، ج١ ص٨٥ ـ الخطيب البغدادي : م٣ ص١٣٥ ـ الذهبي : ج١٥ ص٩٧ ـ الصّفدي : ط٢ ، ج٤ ص٢٣٥ .
(٣٩) الخطيب البغدادي : م٢ ص١٩٦ .
(٤٠) الذهبي : ج١٥ ص٩٧ .
(٤١) الصفدي : ج٤ ص٢٣٦ و ٢٣٧ .

الشعر التحريضي الناقم

ومما يُثبت صحة هذه الشاعرية التي كان يتمتع بها عليّ بن محمد واشتهاره بها ، قبل أن تأتيه الشهرة الكبرى من أنه صاحب الزّنج ، ما ورد لدى الحُصْري (ت ٤٥٣هـ) ، تعليقاً على نموذجين من شعره الموجَّه الى العباسيين حيث يندد بهم لسيطرة الأتراك على مقاليد الأمور . يقول عليّ بن محمد :

بني عمِّنا لا توقدوا نار فتنةٍ — بطيءٌ على مرّ الليالي خمودُهَا
بني عمّنا إنّا وأنتم أنامِلٌ — تضمَّنَها من راحتَيْها عُقُودها
بني عمّنا ولّيتُمُ التُّرْك أمرنا — ونحن قديماً أصلها وعمودها
فما بال عُجْم التّركِ تقسِم فَيْئَنا — ونحن لديها في البلاد شهودها
فأقسم لا ذُقت القَراح وإنْ أَذُقْ — فبُلْغة عيشٍ أو يُبادَ عميدها[٤٢].

ثم إن عليّ بن محمد يتحدث ناقماً من تفشّي المعاصي والفجور في قصور بغداد :

لهفَ نفسي على قصورٍ ببغدا — دَ وما قد حوَتْهُ من كلّ عاصٍ

(٤٢) الحصري : زهر الأداب ، ج١ ص٢٨٨ (وردت الأبيات باستثناء البيت الأول) ــ الحصري : جمع الجواهر ، ص١٩٢ (ورد الشطر الثاني من البيت الثالث على النحو التالي : بديئاً وأعقاباً ونحن شهودُهَا . كما أن البيت الرابع لم يرد له ذكر . في حين جاء في البيت الخامس « يبار » عوض «يباد»)ــ الذهبي : ج١٣ ص١٣٦ (وردت الأبيات الثلاثة الأول فقط . وقد ذُكر البيت الأول ثانياً من حيث الترتيب ، كما جاء فيه « مرّ الزمان » عوض « مرّ الليالي » . وفي نهاية البيت الثالث « عَدِيدها » عوض «عمودها») ــ الصّفدي : الوافي بالوفيات ، مخطوطة المتحف البريطاني ، رقم (Or.6587) ورقة ١٤٣ (أ) (ورد البيت الأول ثانياً من حيث الترتيب ، كما جاء فيه « مرّ الزمان » عوض « مرّ الليالي » . وفي نهاية البيت الثالث « عديدها » عوض « عمودها » . وفي البيت الرابع « فَيِّنا » بدل « فَيْئَنا » . وفي البيت الخامس « فبُلْغة نفسٍ » بدل « فبُلْغة عيشٍ ») ــ الصفدي : مخطوطة إسطنبول ، توب قوبي سراي ، م٢٠ ، رقم (A.2920/21) ورقة ١٧٢ (ب) (الاختلافات نفسها الواردة في مخطوطة المتحف البريطاني ، بالإضافة إلى أن كلمة « يباد » أو « يبار » جاءت « سا » منقوصة ودون تنقيط) .

وخمـــورٍ هنـاك تُشـــرب جَهْـراً ورجـالٍ على المعـاصي حِراص
لستُ بابن الفواطم الزُّهْرِ إنْ لم أُقحم الخيلَ بين تلك العِراص[43].

ويبـدو عليّ بن محمـد في هذه الأبيـات الثمانية المـذكـورة أعـلاه ، علويّ الهوى . ويعلّق الحُصْري بعدها قائلاً : « وله في هذا المعنى شعر كثير قد ناقضه البغـداديون »[44]. وهكـذا نتحقق أن شاعـرية عـليّ بن محمـد كـانت شـائعـة فـاستحقت من الشعراء أن يلتفتـوا إليها ، مـا دام أن البغـداديـين قـد احتفلوا بشعره واهتموا بمناقضته .

في العاصمة « سامراء »

يقـول محمد بن عبـدالمنعم الحِمْيَـري في معجمـه الجغـرافي : « ولصـاحب الزَّنج أشعار أكثرها في الفخر ووجوب القيام لإزالة الظلم وتغيير المنكر »[45]. ولكن لم يكن شعر صاحب الزَّنج على الدوام تحريضياً ناقماً ساخطاً ، كما بدا لنا من المقطعين الشعريين المتقدمين ، وكما يتبادر إلينا مما ذكـره الحِمْيري ، وذلـك أن عليّ بن محمد كان في بداية أمره يتكسّب بهذا الشعر . فعليّ بن محمد وُلد في وَرْزَنين[46] من قرى الـرَّيّ ونشأ ، وهنـاك كما تقـول أُمُّه عنـه : « لم يَدَع ابني

(٤٣) المرزباني : معجم الشعراء ، ص١٤٨ (وقد ورد الشطر الثاني من البيت الأول مختلّ التركيب مبهماً : « وما قد حوتْهُ كلّ عَنَاصي ! كما جاء البيت الثالث على النحو التالي :

لستُ بـابن الفـواطـم الغُـرّ إنْ لم أجِـل الخيل حـول تلك العِـراص) ــ

الحصري : زهر الآداب ، ج١ ص٢٨٨ ــ الحصري : جمع الجواهر ، ص١٩٢ ــ الصفدي : مخـطوطة المتحف البـريطاني ، ورقـة ١٤٣ (أ) (ورد البيت الثالث كـما جاء عنـد المرزبـاني) ــ الصفدي : مخطوطة إسطنبـول ، توب قـوبي سراي ، ورقـة ١٧٣ (أ) (ورد البيت الثالث كـما جاء عند المرزباني) .

(٤٤) زهر الآداب ، ج١ ص٢٨٨ .

(٤٥) الحِمْيَري : الروض المِعْطار في خبر الأقطار ، ص١٠٨ .

(٤٦) الطبري : ج٩ ص٤١٠ ــ ابن أبي الحـديد : شـرح نهج البلاغـة ، ج٨ ص١٢٧ . وإنْ كان =

أحداً عنده عِلم بالرَّيّ حتى خالطهم ، ثم خرج إلى خُراسان »[٤٧]. وجاء في مخطوطة الصَّفَدي « الوافي بالوفيات » أن عليّ بن محمد عاد إلى أُمّه بالريّ ، وكان قد انقطع عنها مع أبيه ، وذلك بسبب خلاف الأب مع الأم التي كانت تتهم زوجها بإتلاف المال ، وتفاقم الخلاف بينهما عندما اشترى جارية ففارقته عندها وخرج مع ابنه . ولكن الولد عليّاً رجع إلى حضن أُمّه بعد سنين عديدة ، وأخبرها بموت والده ، وأقام عندها في الرّيّ مدة « لا يَدَعُ أحداً عنده أدبا (؟) ولا رواية إلا أخذها . وتوجّه إلى خراسان وغاب سنتين أو ثلاثة (؟)، وعاد فأقام مُديدة ، ثم غاب الغيبة التي خرج فيها »[٤٨].

وسرعان ما أتى عليّ بن محمد البصرة ، كعبة التجارة والعِلم ، « وبها قرأ وتأدّب وكان يعلّم القرآن والأدب لبعض أبنائها »[٤٩]. وتعود بعض المصادر القليلة بأصله الى البصرة نفسها : « وكان أصل هذا الدعيّ الثائر من البصرة ، وبها قرأ وتأدّب »[٥٠] ! على أنه من الراجح عندنا ، كما نستشفّ من المصادر المتوافرة لدينا حتى الآن ، أنه أتاها باكراً وأقام فيها ينهل العِلم . « وأما حاله فإنه كان رجلاً فاضلاً فصيحاً بليغاً لبيباً »[٥١]. ويتحدث أحمد بن داود ابن الجَرّاح الكاتب[٥٢] عن صاحب الزَّنج فيذكر بعض شعره ويُقرّ له بالمعرفة

= صاحب « العيون والحدائق في أخبار الحقائق » ، وهو مؤلف مجهول ، يقول : « وهو مشكوك في ذلك » (ج٤ ، ق١ ، ص١٤ و١٥) . كما أن ابن عنبة يذكر بتحفّظ : « ويقال إنه كان وَرْزَنينياً » (عمدة الطالب ، ص٢٩١) .

(٤٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ترجمة « الخبيث » ، ج١٣ ص١٣١ .

(٤٨) الصفدي : مخطوطة المتحف البريطاني ، ورقة ١٤١ (أ) ــ مخطوطة إسطنبول ، توب قوبي سراي ، ورقة ١٦٩ (ب).

(٤٩) الحميري : الروض المعطار ، ص١٠٨ .

(٥٠) ابن العراق : معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر ، ص٣٢ .

(٥١) ابن الطِّقْطَقى : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص٢٥٠ .

(٥٢) حاولنا بلا طائل العثور على ترجمة لهذا الكاتب في المصادر ، ولعله أن يكون محمد بن داود =

قائلاً : « له حظّ من الأدب »[٥٣].

وشَخَصَ عليّ بن محمد بعد البصرة الى عاصمة الخلافة التي غدت منذ سنة ٢٢١هـ سامَرّاء[٥٤]. وبما أن الشعر كان إحدى أدوات عليّ بن محمد ، « وكان حسن الشعر مطبوعاً عليه »[٥٥] ، فقد اتصل بجماعة من حاشية الخليفة المنتصر في سامَرّاء[٥٦] ، وكان بينهم غانم الشِّطْرنجي ، سعيد الصغير ، ويُسْرٌ[٥٧] الخادم الذي كان خادم الخليفة المنتصر[٥٨]. « وكان منهم معاشه ، ومن قوم من أصحاب السلطان وكتّابه يمدحهم ويستميحهم بشعره »[٥٩]. كما كان « يعلّم الصبيان الخط والنحو والنجوم »[٦٠]، وذلك لأنه « كان شاعراً ، أديباً ، يعرف طرفاً من النجوم »[٦١]. وجاء لدى الذهبي أنه كان

= ابن الجرّاح المتوفّى سنة ٢٩٦هـ (أنظر مثلاً ترجمته لدى ــ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، م٣ ص٣٥٣ و ٣٥٤) . والتصحيف بين أحمد ومحمد ليس بغريب لتقارب الحروف في مجملها . على أي حال فبين يدينا صورة للمخطوطة الأهم لكتاب « سير أعلام النبلاء » وهي موجودة في أحمد الثالث بإسطنبول رقم (A9/2910) ، ويعود تاريخ نسخها الى سنة ٧٤٠هـ ، وهي منقولة عن نسخة بخط المصنِّف وفي حياته (ت ٧٤٨هـ) ، ويرد فيها اسم أحمد بن داود ابن الجرّاح (م٩ ، ترجمة « الخبيث » ، ورقة ٥٨) .

(٥٣) الذهبي : ج١٣ ص١٣٦ .

(٥٤) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٢٣١ .

(٥٥) ابن أبي الحديد : ج٨ ص١٢٧ .

(٥٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، م٧ ص٢٠٦ ــ أبوالفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج٣ ص٥٩ ــ ابن خَلْدون: كتاب العِبَر وديوان المبتدا والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، م٣ ص٦٣٧ .

(٥٧) جاء الاسم عند ابن أبي الحديد « بشير » (ج ٨ ص١٢٧) . وهو في طبعة الطبري التي أخرجها المستشرقون « بِشْر » (ج١٢ ص١٧٤٣ هامش) ، وقد أعادت تصويرها مكتبة خيّاط ، بيروت ، في سلسلة « روائع التراث العربي » (٣) .

(٥٨) الطبري : ج٩ ص٤١٠ ــ ابن أبي الحديد : ج٨ ص١٢٧ .

(٥٩) الطبري : ج٩ ص٤١٠ .

(٦٠) ابن أبي الحديد : ج٨ ص١٢٧ .

(٦١) مؤلف مجهول : العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، ج٤ ، ق١ ، ص١٥ .

منجّماً وأنه عانى التنجيم ، و «قال نفطويه : كان ربما كتب العُوَذ »[٦٢]. والعُوَذ مفردها العُوْذَة أو التَّعْويذ وجمعها تعاويذ ، بمعنى الرُّقية التي يعلّقها المرء اتّقاء في زعمه من الشر والعين والجنون[٦٣] ! « وقيل : كان الخبيث منجّماً يكتب الحروز »[٦٤].

لقد قال عليّ بن محمد « الشعر ، ومدح به ، وصار كاتباً »[٦٥]. ويذكر الصَّفَدي سيرته فيقول : « وكان بِسُرّ مَنْ رأى وتصرّف في أشغال الديوان وقال الشعر واستماح به »[٦٦]. وظل عليّ بن محمد يستمنح الناس من النافذين بشعره ويعلّم الصبيان ويمتدح الكُتّاب متكسّباً ، وهؤلاء كانوا للمناسبة أصحاب حظْوة واطّلاع ، إلى أن غادر سامَرّاء سنة ٢٤٩هـ وشَخَصَ منها إلى البحرين[٦٧].

(٦٢) الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوطة دار الكتب المصرية ، رقم ٤٢ تاريخ ، م١٥ ورقة ١١٥ .

(٦٣) في سنة ٢٧٩هـ بايع المعتمِد الذي كان منصرفاً الى لهوه ، بولاية العهد الى أبي العباس بن الموفَّق ولقّبه بالمعتضِد ، وكان الموفق أخوه قد مات في السنة السابقة . وعندما صار المعتضد خليفة ترك سامرّاء وسكن بغداد التي أحبّها ، عائداً بذلك إلى مقرّ الخلافة السابق والأصلي (مؤلف مجهول : العيون والحدائق ، ج٤ ، ق١ ، ص٩٤) . « وأمر المعتضد في هذه السنة أن لا يقعد في الطريق منجّم ولا قصّاص ، واستحلف الورّاقين أن لا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل » (السُّيُوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٦٦ و ٣٦٧) .

(٦٤) ابن العِماد : شَذَرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب ، ج٢ ص١٥٦ .

(٦٥) الذهبي : ج١٣ ص١٢٩ ، ١٣١ .

(٦٦) مخطوطة الوافي بالوفيات ، المتحف البريطاني ، ورقة ١٤١ (أ) ــ توب قوبي سراي ، ورقة ١٦٩ (ب).

(٦٧) الطبري : ج٩ ص٤١٠ ــ ابن الأثير : م٧ ص٢٠٦ ــ ابن أبي الحديد : ج٨ ص١٢٩ ــ وجاء لدى الذهبي أنه « نزح من سامَرّاء الى الرَّيّ لميراث » (ج١٣ ص١٣١) .

توثّب إلى السلطة

إن عـليّ بن محمد كـانت نفسه تحـدّثه بـالمعالي ولا يجـد متنفّساً لهـا ، فهـو « تسمو نفسه الى معالي الأمور ، ولا يجـد إليها سبيـلاً »[٦٨]. والقناعـة لم تكن عنده كنزاً يحرص عليه ، فهي مهانة ، والـدنيا سبـاق وغَلَبَة ، وعـلى حد قـول شوقي : « ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا » . وعَكَسَ شعر عليّ بن محمد هذا التوثّب عنده الى العلوّ والسلطة وإمساك الأمـور بناصيتهـا . ولا شك أنـه كان يجـد في ذاته استعداداً شخصيـاً مشروعـاً لهذا الـطموح ، وأن عليـه أن يهتبل الفـرصة السـانحة لتحقيق مـا يعتمل في صـدره من تـطلّع الى عـظائم المـراتب قبـل أن يحـوزها غيـره ، خصوصـاً والزمن يعتـوره الاضطراب ، والخلفـاء مضعـوفـون محبوسون مقتولون ، والساحة مبذولة لكل مغامر تراوده نفسه على التقحّم لعـل الفوز يكون حليفاً لها ونصيراً . فكما جاء لدى الـذهبي : « وطمِع كـل شيطان في التوثّب »[٦٩].

يقول عليّ بن محمد :

رأيتُ المُقَـامَ عـلى الاقتصـادِ قُنُوعـاً بـهِ[٧٠] ذلّـةً في العِبـادِ
إذا النـار ضاق بهـا زِنْدُهـا[٧١] فَفُسْحتهـا في فِـراق الـزِّنـاد
إذا صـارمٌ قـرّ في غِـمْـدِهِ حوى غيرُهُ السَّبْقَ يـومَ الجِلاد[٧٢].

ولهذا فارق عليّ بن محمد سامرّاء الى البحرين فالبادية بعدها ، مجرّباً خُـطّة

(٦٨) ابن أبي الحديد : ج٨ ص١٢٧ .
(٦٩) سير أعلام النبلاء ، ج١٣ ص ١٣١ .
(٧٠) قُنُوعاً به : أي خضوعاً له وانقياداً ، من قَنَعَ .
(٧١) زِنْـدها : هـو أداة لإشعال الـزَّنْدَة وتفجـير ما تحـوي من مادة قـابلة للالتهـاب ورمي القذيفـة عندها .
(٧٢) ابن أبي الحديد : ج٨ ص١٢٨ .

في تسنّم السلطة . ثم عاود الرجوع إلى البصرة سنة ٢٥٤هـ ونزل في بني ضُبَيْعَةَ ، وحاول اغتنام الفرصة بسبب انقسام أهل البصرة ونشوب الفتنة بين البِلاليّة والسعديّة فيها وإخراجهما عاملها محمد بن رجاء عنها[٧٣] . فطمع عليّ ابن محمد في أن يستميل أحد الفريقين اليه ، فيستعين به على الآخر ، ولكنه لم يُفلح في مسعاه ولم يلقَ استجابة من إحدى الطائفتين المتصارعتين[٧٤] . فخرج من البصرة بعدها هارباً إلى بغداد ، إلى أن وافى البصرة مجدداً ليقود الزَّنج في ثورتهم الكبرى وليحقق بهم ومعهم مطمحه العظيم الذي دوّخ به الخلافة العباسية بلا مهادنة منه ولا مساومة ولا خضوع للمغرِيات المادية ومن غير مبالاة بعروض الأمان المتكررة[٧٥] .

« ديوان صاحب الزنج »

وإذا ما كنا نجمع شتات المعلومات ونُتَفَ الأبيات ، لنقيم الدليل على أن صاحب الزَّنج شاعر ، ثم لنلملم في المصادر ما يمكن أن نُطلق عليه « ديوان صاحب الزَّنج » ، فإن ابن عِنَبة (ت ٨٢٨هـ) يغنينا عن هذا الإثبات وذاك الجهد من قوله عن عليّ بن محمد صاحب الزَّنج : « وله ديوان مفرد ، ورأيتُ كثيراً من نُسَخه »[٧٦] . ولكن أين هو الآن هذا الديوان ذو النُّسَخ الكثيرة في القرن التاسع الهجري ؟ وهل تهبنا الأيام ذات يوم هذا الديوان وهو مطمور مهمَل بين مخطوطات هذه المكتبة العالمية أو تلك ؟ على أنه يخالجنا شعور أن هذا الديوان المعنيّ ربما كان ديوان عليّ بن محمد الحِمّاني الذي سبقت الإشارة إليه ، والذي كان موجوداً ومتوافراً حتى القرن التاسع الهجري ، ثم لم نعد

(٧٣) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ج١١ ص١٩ ــ ابن خلدون : م٣ ص٦٣٨ .
(٧٤) الطبري : ج٩ ص٤١١ و٤١٢ ــ ابن الأثير : م٧ ص٢٠٧ ــ ابن كثير : ج١١ ص١٩ .
(٧٥) مؤلف مجهول : العيون والحدائق ، ج٤ ، ق١ ، ص٥٧ .
(٧٦) عمدة الطالب ، ص٢٩٣ .

ندري عنه شيئاً بعدها ! وابن عِنَبة يقول إنه سمع شعراً لصاحب الزَّنـج أنشده إياه شيخه ابن مُعَيّة ، ويذكـر لنا مقـطعين من الشعـر يبلغان أحـد عشر بيتاً . وقد بذلنـا جهداً طيّبـاً لمتابعـة ترجمـة ابن مُعَيّة[٧٧]، علّنـا نعثر عنـده على ذكـر لصاحب الزَّنج ، لكن محاولتنا لم تُجْدِ نفعـاً ، ربما لأن مـراجعنا الشيعيـة ليست وافية .

وبعدُ ، فليست هذه الدراسة المكثّفة سوى تمهيد للإكباب على جمع شتات أبيات شعر صاحب الزَّنج وتخريجها ودرسها[٧٨] ، وإنْ كنا نعتقد مسبّقـاً أنها لا تختلف على العموم عن الإيقاع الشعري لذاك العصر . فإن الأغراض الشعرية التي تتناولها هي التي كانت شائعـة عهدذاك ، وبخاصة أن صـاحب الزَّنـج قد تكسّب بشعره في بدايـة أمره ، ومن ثم وقفـه بعدهـا لخدمـة أغراضـه الثوريـة والسلطوية .

(٧٧) هناك ترجمة لابن مُعَيّة لدى : الحر العـاملي : أمـل الآمل ، ق٢ ص٢٩٤ و ٢٩٥ . وفي هـذا المصدر يتردد كثيراً ذكر ابن مُعَيّة على أنه راوية لكثير من الطالبيين (راجع فهرس الأعلام ، ق٢ ص٤١٦) ــ عباس القمّي : الكنى والألقاب ، ج١ ص٤٠٩ و ٤١٠ .

(٧٨) هناك محاولة أولى في هذا الميدان قام بهـا أحمد جـاسم النجدي : « أشعـار صاحب الزَّنج » ، مجلة « المورد » م٣ ، ع ٣ (١٩٧٤) ، ص١٦٧ ـ ١٧٤ . وقد عـرض للأشعـار التي توافـرت لديه من غير دراستها، لأنه يقـول ضمن تمهيد خـاطف إنه فعـل ذلك خـلال رسالتـه « الشعـر والشعراء في البصرة خلال القرن الثالث الهجري » . لكن هذه الرسالة ليست مطبوعـة بعدُ في ما نظن ، أو ربما هي مطبوعة ولكن لم يُتَح لنا الاطلاع عليها .

المصادر والمراجع

١ ـ عليّ بن محمد صاحب الزَّنج (ت ٢٧٠هـ): «أشعار صاحب الزَّنج»، صنعة : أحمد جاسم النجدي ، مجلة « المورد » (بغداد) م٣ ، ع ٣ (١٩٧٤) ، ص١٦٧ ـ ١٧٤ .

٢ ـ عليّ بن محمد الحِمّاني (ت ٣٠١هـ) : « ديوان عليّ بن محمد الحِمّاني العلوي الكوفي » ، صنعة : محمد حسين الأعرجي ، مجلة « المورد » م٣ ، ع ٢ (١٩٧٤) ، ص١٩٩ ـ ٢٢٠ .

٣ ـ الطَّبَري (ت ٣١٠هـ) : تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف بتاريخ الطبري (١١ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سلسلة « ذخائر العرب » (٣٠) ، دار المعارف بمصر ٦٠ ـ ١٩٦٩ ، ١٩٧٧ .

٤ ـ المسعودي (ت ٣٤٥هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر (٧ أجزاء) ، طبعة بربيه دي مينار وباڤيه دي كرتاي ، عُني بتنقيحها وتصحيحها ووضع جزءين من الفهارس العامة : شارل پلّا ، منشورات الجامعة اللبنانية ، قسم الدراسات التاريخية (١١) ، بيروت ٦٦ ـ ١٩٧٩ .

٥ ـ حمزة بن الحسن الأصبهاني (ت ٣٦٠هـ) : تاريخ سنيّ ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مطبعة كاوياني ، برلين ١٣٤٠هـ .

٦ ـ المَـرْزُباني (ت ٣٨٤هـ) : معجم الشعـراء ، تحقيق : عبـدالستـار أحمـد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٠ .
٧ ـ المرزباني : الموشَّح ، مآخذ العلماء على الشعراء في عـدة أنواع من صنـاعة الشعر ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ١٩٦٥ .
٨ ـ أبـو الفرج النَّهْرواني (ت ٣٩٠هـ) : الجليس الصـالـح الكـافي والأنيس الناصح الشافي (جزءان) ، تحقيق : محمد مُرسي الخُـولي ، عالم الكتب ـ محمد أمين دمج ، بيروت ٨١ ـ ١٩٨٣ .
٩ ـ الحُصْـري (ت ٤١٣هـ) : زَهْـر الآداب وثمـر الألبـاب (جـزءان) ، تحقيق : عـلي محمـد البجـاوي ، دار إحيـاء الكتب العـربيـة ، القــاهـرة ١٩٥٣ .
١٠ ـ الحصْري : جمع الجواهر في المُلَح والنّوادر (طُبع سابقاً باسم : ذيل زَهْر الآداب) ، تحقيق : عـلي محمد البجـاوي ، دار إحياء الكتب العـربية ، القاهرة ١٩٥٣ .
١١ ـ البِيْروني (ت ٤٤٠هـ) : الآثار البـاقية عن القـرون الخاليـة ، تحقيق : إدوار ساشو ، ليبزيغ ١٩٢٣ .
١٢ ـ البِيـروني : الجماهـر في معرفـة الجواهـر ، مطبعـة جمعية دائـرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدَّكن ، الهند ١٣٥٥هـ .
١٣ ـ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) : تاريخ بغداد أو مدينة السلام (١٤ مجلداً) ، مكتبة الخانجي بـالقاهـرة ، المكتبة العـربية ببغـداد ، ومطبعـة السعادة بجوار محافظة مصر ١٩٣١ .
١٤ ـ ابن عبدالبَر (ت ٤٦٣هـ) : بهجة المجالس وأنس المُجـالس ، وشحذ الـذاهِن والهاجس (قسمـان) ، تحقيق : محمد مُـرسي الخُولي ، سلسلة « تراثنا » ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٢ .
١٥ ـ البَكْري (ت ٤٨٧هـ) : سِمْط اللآلي (جزءان) ، تحقيق : عبدالعزيز

الميمني ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٦ . وهناك للمحقق نفسه جزء مستقل عن الدار نفسها : فهارس سِمط اللآلي ، القاهرة ١٩٣٧ .

١٦ ـ مؤلف مجهول (من القرن الخامس الهجري (؟)): العيون والحدائق في أخبار الحقائق (ج٤ (٢٥٦ ـ ٣٥٠هـ) ، قسمان) ، تحقيق : عمر السّعيدي ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ٧٢ ـ ١٩٧٣ .

١٧ ـ السَّمعاني (ت ٥٦٢هـ) : الأنساب (١٠ أجزاء) ، ج١ ـ ٦ ، تحقيق : عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدَّكن ، الهند ٦٢ ـ ١٩٦٦ . ج٧ ـ ١٠ ، تحقيق : محمد عوامة ، رياض مراد ، وعبدالفتاح محمد الحلو ، الناشر محمد أمين دمج ، بيروت ٧٦ ـ ١٩٨١ .

١٨ ـ نَشْوان الحِمْيَري (ت ٥٧٣هـ) : الحُوْر العِيْن ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المُثنّى ببغداد ١٩٤٨ .

١٩ ـ ياقوت (ت ٦٢٦هـ) : معجم البلدان (٥ مجلدات) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (؟) .

٢٠ ـ ياقوت : معجم الأدباء (٢٠ جزءاً) ، تحقيق : أحمد فريد رفاعي ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة ٣٦ ـ ١٩٣٨ . طبعة مصوّرة عن دار إحياء التراث العربي ، بيروت (؟) .

٢١ ـ ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ (١٣ مجلداً) ، دار صادر ـ دار بيروت ٦٥ ـ ١٩٦٧ .

٢٢ ـ ابن الأثير : اللُّباب في تهذيب الأنساب ، تحقيق : مصطفى عبدالواحد ، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ١٩٧١ .

٢٣ ـ القِفْطي (ت ٦٤٦هـ) : المحمَّدون من الشعراء وأشعارهم ، تحقيق : رياض عبدالحميد مراد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٥ .

٢٤ ــ ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ) : شرح نهج البلاغة (٢٠ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ٥٩ - ١٩٦٤ .

٢٥ ــ ابن خَلِّكان (ت ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٨ مجلدات) ، تحقيق : إحسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت ٦٨ - ١٩٧٢ .

٢٦ ــ ابن الطِّقْطَقَى (ت ٧٠٩هـ) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦ .

٢٧ ــ ابن منظور (ت ٧١١هـ) : لسان العرب (١٥ مجلداً) ، دار صادر ، بيروت (؟) .

٢٨ ــ محمد بن عبدالمنعم الحِمْيَري (ت ٧٢٧هـ) : الروض المِعْطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) ، تحقيق : إحسان عبّاس ، ط ٢ ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ١٩٨٠ .

٢٩ ــ أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) : المختصر في أخبار البشر (٧ أجزاء) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت (؟) .

٣٠ ــ الذهبي (ت ٧٤٨هـ)) سِيَر أعلام النبلاء (١٧ جزءاً حتى تاريخه) ، أشرف على تحقيقه : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ٨١ - ١٩٨٣ .

٣١ ــ الذهبي : مخطوطة سِيَر أعلام النبلاء ، إسطنبول ، أحمد الثالث ، رقم (A9/2910) ، م٩ ، ترجمة « الخبيث » ، ورقة ٥٥ ــ ٥٨ .

٣٢ ــ الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوطة دار الكتب المصرية ، رقم ٤٢ تاريخ ، م١٥ . وهذه المخطوطة للطبقات فقط (٢٥٠ ـ ٣٠٠هـ) ، وهي مأخوذة عن نسخة مدرسة المرجانية النعمانية ببغداد .

٣٣ ــ ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) : فوات الوفيات والذيل عليها (٤ مجلدات) ، تحقيق : إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ٧٣ ـ ١٩٧٤ .
٣٤ ــ الصَّفَدي (ت ٧٦٤هـ) : الوافي بالوفيات ، سلسلة « النشرات الإسلامية » (٦) ، تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية ، بيروت ٤٩ ـ ١٩٨٤ .
٣٥ ــ الصَّفَدي : الوافي بالوفيات، ترجمة « صاحب الزَّنج » ، مخطوطة المتحف البريطاني (British Museum, Or. 6587) ، ورقة ١٤٠ (ب) ـ ١٤٣ (ب) ــ مخطوطة إسطنبول ، توب قوبي سراي ، م٢٠ ، رقم (A. 2920/21) ، ورقة ١٦٩ (أ) ـ ١٧٣ (ب) .
٣٦ ــ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية في التاريخ (١٤ جزءاً) ، المطبعة السلفية ، مطبعة السعادة ، ومكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٣٢ .
٣٧ ــ ابن خَلْدون (ت ٨٠٨هـ): كتاب العِبَر وديوان المبتدا والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون (٧ مجلدات) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ٥٦ ـ ١٩٥٩ .
٣٨ ــ ابن عِنَبة (ت ٨٢٨هـ) : عُمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، باعتناء : محمد حسن آل الطالقاني ، ط٢ ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٦١ .
٣٩ ــ السُّيُوطي (ت ٩١١هـ) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط٢ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٩ .
٤٠ ــ السّيُوطي : لُبّ اللُّباب في تحرير الأنساب ، تحقيق : بطرس حنا ڤت ، لَيْدن ١٨٤٠ . أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المُثنّى ببغداد (؟).
٤١ ــ طاش كبري زادَه (ت ٩٦٧هـ) : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم (٣ أجزاء) ، تحقيق : كامل بكري

وعبدالوهّاب أبو النور ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٨ .

٤٢ ــ ابن العراق (من علماء القرن العاشر الهجري) : معدن الجواهر بتاريخ البصـرة والجزائـر ، تحقيق : محمد حميـدالله ، مطبـوعات مجمـع البحوث الإسلامية ، إسلام آباد ، باكستان ١٩٧٣ .

٤٣ ــ ابن العِماد (ت ١٠٨٩ هـ) : شَذَرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب (٨ أجزاء) ، مكتبة القُدسي ، القاهرة ١٣٥٠هـ .

٤٤ ــ الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ) : أمل الآمـل (قسمان) ، تحقيق : أحمـد الحسيني ، مكتبة الأندلس ، بغداد ١٣٨٥هـ .

٤٥ ــ عباس القمّي (ت ١٣٥٩هـ) : الكنى والألقاب (٣ أجزاء) ، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٥٦ .

٤٦ ــ Carl Brockelmann: Geschichte der Arabischen Litteratur (GAL), Leiden (1) 1943, (2) 1949. Supplementband, Leiden (1) 1937, (2) 1938.

٤٧ ــ Alexandre Popovic: La Révolte des Esclaves en Irak au IIIe/IXe siècle, Bibliothèque d'Etudes Islamiques (6), Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris 1976.

القسم الثالث

ثورة الزنج في كتب الدارسين

الفصل الخامس

ثورة الزَّنج في مِرآة مكسورة

ليس الإعجاب بهذا الكتاب لمحمد عمـارة « ثورة الـزَّنج »[1]، هـو الذي حملني على تحبير الصفحات التاليـة ، إنما مـا ابتعثه في نفسي من مـرارة لا أدري كيف أصفهـا . فصاحب هـذا الكتاب ، عـلى صغر حجمـه ومادتـه ، هو من الأسماء الرائجة خلال السنوات الأخيرة في السوق الفكري . وعنـدما وقـع بين يـديّ كِتابـه الجديـد غمرتني الغِبْـطة في البَدْء ، لأن صلتي بهـذا المـوضـوع في التاريخ الإسلامي ترقى الى عهد الشباب الباكر ، وكنت ومـا زلت معنيّاً بـه ، متتبعاً لما يصدر من أبحاث حـوله ، منقّبـاً في المظانّ والمخـطوطات عن بصيص من النور جديد ينير العَتَمات التي تلفّ هذه الثورة الاجتماعيـة ، وهي عتمات اصطنعتها وأهالتها على أحداثها وأهدافها وتحالفاتها ، الطبقةُ الحـاكمة ، وهـذا شأن كل ثـورة عرفهـا التاريـخ . أليست الثورة خـروجاً عـلى المنطق السـائد ، وتبـديلاً في عـلاقات الإنتـاج ، وزعزعـة للنظام الاجتمـاعي المهيمن ، فكيف ننتظر من الذين جاءت لتنهال بمطرقتها عليهم أن يُنصفوها ؟

(١) ٨٤ صفحة من القطع الصغير، دار الوحدة ، بيروت ١٩٨٠ .

التزوير عملة قديمة

إن تزوير التاريخ عُمْلة قديمة ، وما دامت الطبقات بعضها فوق بعض ، تتنازع في صراع تناحريّ لا يرحم ، فإن العَتَمات ستقتحم أسفار التاريخ ناشرة الأضاليل . إنه الكَذِب الطبقيّ ـ إذا ساغ التعبير ، يهاجم العقول ، وليست ثورة الزَّنج خروجاً على القاعدة . على أن ما يميز الثورات في العصور الحديثة أن وسائل الاتصال والإعلام العجيبة ، ورواج الطباعة الخارق ، وانتشار الصورة على أشكالها ، هي عوامل مِعْوان للتضليل وغسل الأدمغة ، بيد أنها تتيح في الآن نفسه للآراء المتباينة أن تظهر إلى العلن ، وتفتح منافذ وكُوى يتسلل منها ضياء الحقيقة التاريخية عبر العتمات ويفضح الأعداء الطبقيين وما حاكوه من تُرَّهات . إن الذبح والاغتصاب والتنكيل والتمثيل وتُهَماً غيرها لا تُحصى قد أُلصقت بالثورات قديماً وحديثاً ، وبينها ثورة الزَّنج في العصر العباسي ، هذا العصر الذي دشّنه أصحابه بنافورة من الدماء لا يهدأ لها خرير ! وإن زعماء الثورات وقادتها مجانينُ ومعتوهون وشُذّاذ قد حلّت عليهم اللعنة ، وكان عليّ بن محمد ، قائد ثورة الزَّنج ، في قاموس التاريخ الإسلامي الرسمي خبيثاً كافراً لعنه الله من خائن فاسق ! أما جماهير الثورات فهم هَمَج متوحشون لصوص أوباش ، ولا حاجة إلى التذكير أن جماهير ثورة الزَّنج هم خصوصاً من العبيد ، فكيف ترجو الخير ممن هم « عبيد » يستبيحون الحُرمات قطّاع طرق بُغاة طَغَام ! وبعدُ ، فليست الثورة في نهاية المطاف ، وبرغم كافة الافتراءات ، درساً في الأخلاق و « الإتيكيت » ، إنها ساعة حسم وقفزة لقوى الإنتاج ، والنصر دائماً ، برغم الانتكاسات والمآسي ، حليف القوى التي تدفع المجتمع والتاريخ إلى الأمام . هل رأيتم مجتمعاً يَقْفل القهقرى من البورجوازية الى الإقطاع أو يرتد عن الإقطاع الى العبودية ؟ أمّا الرِّدّة فهي فصل مألوف يدخل في خانة الأخطاء ، وقد تكون مأساوية أحياناً ، غير أن الخطأ التاريخي ليس من شأنه أن يبدّل ما يمليه التطور المحتوم على صفحة النص التاريخي .

أزمة في كتابة النص

ليس كتاب محمد عمارة عن ثورة الزَّنج محاولة علمية لإعادة صياغة نص تاريخي ، إنه في الحقيقة ثرثرة تاريخية ليست ذات بال ! والقارىء المتتبع يعجب لما نشر هذا الدارس خِلَلَ الأعوام الأخيرة من كتب تأخذ بخناق بعض ، ما دام أنه بادر إلى إعادة نشر الكثير من تراث النهضة الفكري الطليعي المجيد ، مثل أعمال الأفغاني ومحمد عبده ورِفاعة رافع الطَّهْطَاوي وعلي مبارك وقاسم أمين . ولكن هذا العمل الذي يبدو مشكوراً للوهلة الأولى ، ما أن تُنعم النظر فيه حتى تجد أن الرجل لا يفعل سوى تناول النصوص القديمة وإعادة نشرها دون أيّ تحقيق ، ويضيف إليها مقدِّمات إذا ما اعتصرتها لوجدت أنها تقوم غالباً على استشهادات لا تنضب من النصوص المنشورة . وكفى الله الدارسين شر البحث ورَهَقه ، فالاستشهادات تُسمن الكتاب لكنها لا تغني عن جوع إلى جوهر المعرفة التي أنتجها أصحاب النصوص وإشكالات عصرهم . إن عمارة يمارس التلفيق العلمي ، كأنه لم يكفنا ما في حياتنا الرمادية من تلفيق وتدليس ولعب بالعقول . وإن القارىء ليأخذه الدَّهَش عندما يقرأ هذا الكتيّب الجديد عن ثورة الزَّنج الذي أخرجه محمد عمارة . إن المؤلف يُقبل على معالجة موضوع تاريخي حسّاس وهو لا يعرف من أمره إلا أربعة مصادر بالكاد ، إذ لم يقرأ منها غير صفحات يسيرة بلا تدقيق !

وربّ قائل : ما دام الكتاب على هذا النحو من التسطّح العلمي فلِمَ نحفل به ؟ الواقع أن الباعث الذي يروع المرء هذا التخلف الذي يكاد يكون مزمناً في دراسة التاريخ الإسلامي ، وهو ما قادنا إلى تدبيج هذه المقالة عَبْر تعرّضنا لنموذج متخلف جداً يتمثل بكتاب عمارة . إنه مجرد مناسبة غير سارة نتكىء عليها للحديث عن بعض شجون الدراسة التاريخية عندنا ، وعن بعض القضايا الإشكالية التي تثيرها ثورة الزَّنج لدى الباحثين . إن التاريخ الإسلامي

دون غيره ما زال تقريباً حَكَراً على أقلام محافظة منغلقة فكراً وروحاً على طرائق ومناهج البحث العلمي ، بحيث إن الكتب العلمية الطابَع تدخل في حيّز النَّدْرة . بل إن ما هو أدهى أننا بعد خمس وسبعين سنة من توالي صدور كتاب « تاريخ التمدّن الإسلامي » لجرجي زيدان بأجزائه الخمسة[٢]، وهو من الكتب العربية الخيِّرة القليلة في نهجه وعلميته وإحاطته ونفاذ نظرته خلال النهضة الحديثة ، وقد وضعه رائد كبير يُحمد له سعيه العلمي في هذا الميدان ، بعد ذاك الزمن البعيد نجد في الغالب الأعمّ ، ولا نتوقف عند الاستثناءات ، أن ما يصدر من كتب حول التاريخ الإسلامي ينتمي إلى مرحلة ليست على سويّة « زيدان » العلمية بأيّ حال ، إنما يعود بنا الى ما كان شائعاً قبله من اجترار لا هوادة فيه وتكرار لما ورد في بعض كتب الأقدمين من غير غربلة ولا نقد ولا تمحيص دعك من حديث المنهج .

الحرية دائما وأبدا

والطريف في كتاب عمارة أنه جاء ، كما ورد في تقديمه ، يحقق لصاحبه أمنية جاشت في صدره ما يزيد على ربع قرن ، منذ أن قرأ لطه حسين « ثورتان »[٣]. أما الثورة الأولى التي يقصدها طه فهي ثورة سبارتاكوس ، ذلك الثائر بالنظام الاجتماعي الإقطاعي الروماني سنة ٧٣ ق.م. والذي ألّب حوله العبيد المضطَهَدين الذين كانوا يعملون في كمپانيا بإيطاليا ، فنهضوا يعضدونه بعشرات الألوف . وكان سبارتاكوس راقي النفس طيّباً ، وكان في

(٢) أفضل طبعة لهذا الكتاب هي التي وقف عليها حسين مؤنس وصدرت عن دار الهلال ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣) ظهرت هذه الدراسة في مجلة « الكاتب المصري » التي كان يرئس تحريرها طه حسين (م٢ ، ع ٨ (مايو ١٩٤٦) ، ص٥٥٣ ـ ٥٧٣) . وصدرت بعدها في كتابه « ألوان » ، ط٣ ، ص١٦٤ ـ ١٨٧ ، دار المعارف بمصر (؟) .

الأصـل ، قبل استعبـاده ، حراً وصـاحب قطعـان يرعى بهـا في تراقيـا . هذه الثورة للأرقّاء في إيطاليا يعمد طه الى مقارنتها بثورة صـاحب الزَّنـج في البصرة الذي يدعوه عبدالله بن محمد . ولا ندري من أين جاء طه بهذا الاسم المغلوط ومن أيّ مصدر استقاه ، وقد ردده على هـذا النحو في جميـع الأماكن التي ذكـر فيهـا اسم صاحب الـزَّنج خـلال صفحـات دراستـه . فـالشـائـع في الأصـول التاريخية التي بِحَوْزَتنا أن اسم صاحب الزَّنج هو عليّ بن محمد ، أما لماذا دعـاه طه « عبدالله » فهو خطأ صراح استرسل فيه . وقـد انتقلت عدوى هـذا الخطأ في تسمية قائد الزَّنج في ما بعـد إلى معين بسيسـو في مسرحيتـه الشعريـة « ثورة الزَّنج »[٤]. المهم أن هذه المقارنة التي عقدها طه بين ثورتي كمپانيا (٧٣ ـ ٧١ ق.م.) والبصرة (٨٦٩ ـ ٨٨٣م) ليس لها ما يبررها علمياً . فـالشقة الـزمنية بينهما تمتد قرابة عشرة قرون ، وليس هناك أيضاً من تلاؤم في المكان أو الظروف الموضوعية أو الدوافع التي تحثّ على التـوثّب الثوري ، وإن كـان تطلّب العـدل الاجتمـاعي مبتغاهمـا . على أن هـذا قِسْمة مشتـركة بـين كثـير من الحـركـات الاجتماعية في مشارق الأرض ومغاربها وعلى مدى التاريخ ، لأن الإنسان فُـطر على نِشدان الحرية ، وهو هدف لن تكلّ سواعـد البشر في أيّ يوم عن التشبّث به ، فشعار الحرية أو الموت كان في جيب آدم ، إنْ كان يحمل جيباً وقتها .

وهذه الدراسة لطه حسين قد عرضنا لها على نحـو من التفصيل والنقـد في فصل آخر ، على أن القارىء سيعثر عند مطالعتها عـلى متعة تفـوق ما يجـده في كتيّب عمارة الذي « وَلَـدَه » صاحبـه بعد حَبَـل دام ربع قـرن . فأسلوب طـه الشهـير سلس ممتع ، وإن كـان ههنا غـير مقنع علميـاً ؛ لكن عمارة ضيّـع في كتابه الأسلوب العلمي المنتظر ، وليس هو في وارد التعويض عنه أدبيـاً ، فجاء بعمل مبتذل ضحل بغير هوية . ولا بـد أن يعجب المرء لهـذا الحَبَل المـزمن

(٤) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ .

لدى عمارة ، ما دام أنه يُصدر كتباً متدفقة ، بحيث يحار المتتبع لها من أين يجد هذا المؤلف الوقت المقنع لكتابتها ! بيد أنّ مَنْ يُنعم النظر في « القيمة » العلمية لهذه الكتابات يبارحه العَجَب عندها .

أسباب الثورة

والآن ، تُرى ما هي الأسباب الداعية الى ثورة الزِّنج ؟ لقد جعلها عمارة في عوامل سياسية تنحصر تحت عنوان الصراع بين الخلفاء العباسيين والطغمة العسكرية التركية المتسلطة (ص١٣ ـ ٣١). ومن يقرأ عرضه يتصور أن هؤلاء الخلفاء رايات الإسلام ودعاة التحرر العقلي . فإذا بالمعتصم بطل معتزلي مستنير ، وقد جنّد الأتراك واستقوى بهم ليحيل الإدارة الى حصن للحضارة العقلانية ! أما المنتصر فقد أحدث تحولاً خطيراً بتقربه من العَلَويين الذين امتدحوه ، وكان نصيراً للعدالة التي يرغب في إشاعتها بين الناس فجاء الأتراك واستباحوها ! أما المستعين فلم يُغْنِ عنه خضوعه للأتراك ، فذهب ، نظير السابقين من الخلفاء ، طُعمة للصوارم . وكذلك لاقى المعتز الخلع والقتل . أما المهتدي فكان طموحه يذهب الى العدل والنَّصَفة والسير على هدي عمر بن الخطاب ، لكن الأتراك المستبدين عذّبوه وأطاحوا به ، وإن كان العامة بين الشعب والجند أيضاً نهضوا لمؤازرته . فقد وزّع العامة الرِّقاع يفضحون بها الموالي المضطهِدِين لرأس الدولة ، وشكا الجند أوضاعهم المتردية الى الخليفة ، لأن الأموال والضِّياع والإقطاعات ورسوم الخراج تذهب الى حَوْزة قادتهم الأتراك في حين أن الحرمان نصيبهم .

إن علّة عمارة تكمن في تجميل التاريخ وتزويره. فإن المرحلة الممتدة من ارتقاء المعتصم سُدّة الخلافة سنة ٢١٨هـ، حتى نشوب ثورة الزِّنج سنة ٢٥٥هـ في عهد المهتدي، تميزت بعسكرة الدولة الإسلامية. صحيح أن

المعتصم هو أخو المأمون ، لكن شتّان ما بين الأخوين . ويأتي عمارة ليجعل من المعتصم بطلاً معتزلياً ! ولربما كان تنكيله بالناس ليس ناتجاً عن حملهم القول بخلق القرآن ، شأن أخيه المأمون ، بمقدار ما كان إرهاباً لهم ، لأنه أخرج العرب من الديوان وأسقط عنهم عطاءهم وأحلّ مكانهم الأتراك مماليكه . والمأثور عن هذا الخليفة في المظانّ التاريخية أنه لم يكن من العِلم في شيء ، وإنما تُحكى عنه الروايات المشيْدة بقوته الجسدية الخارقة . فما بالك بإنسان يمشي وهو يحمل ألف رطل ، وإذا ما جعل زند الرجل بين إصبعيه كسره ! إن أمّه تركية ، وإذا كان قد استعان بالأتراك فلبأسهم الشديد ، ولذلك كانوا ملاذاً لكافة دول المنطقة في ذاك العصر يستنجدون بهم كقوة ضاربة للسلطة . ولقد أكثر المأمون من اقتناء هؤلاء الأتراك والجود بالمال من أجلهم ، بحيث كان يبذل للمملوك منهم مائتي ألف درهم . ومشى على منواله المعتصم[5]. فهؤلاء الأتراك هم الذين جلبوا النصر للمعتصم ، فاتح عَمُّورية ، في معاركه الكبرى . لقد كانوا بين مرتزقة ذاك الزمن من الصنف الأول لمراسهم وبطشهم وبداوتهم.

دود الخل

إن تسلط الأتراك بعدها على الخلفاء مردّه إلى انحلال الدولة والقائمين عليها ، فعندما كانت هذه قوية مرهوبة مع المعتصم لم يجعل الأتراك من الخلفاء ألعوبة بين أيديهم . ولقد استعان أفراد الأسرة الحاكمة بالأتراك للتآمر واغتيال بعضهم البعض ، كما فعل المنتصر إذ تواطأ مع القائد البارز بُغا للفتك بأبيه المتوكّل ! ثم لم يهنأ بفعلته البشعة ، إذ أغرى شركاؤه الأتراك طبيبه ابن طيفور (وليس « الطيفوري » كما يذكر عمارة (ص٢٣) ، وأمثال هذه الأخطاء

(٥) المقريزي : النزاع والتخاصم فيما بين بني أُميّة وبني هاشم ، ص٦٣ .

شـائعة عنـده !) ، ففصده بـريشة مسمـومة قبـل أن يُكمـل نصف عـام عـلى اغتصابه السلطة من أبيه . أما عمارة الذي يحيل التاريخ كلامـاً وزيفاً وخـطابة فالمنتصر عنده هو الذي سعى الى تحرير الخلافة العباسية من استبـداد الأتراك ! وجاء هؤلاء بالمستعين ، ثم تخلصوا منه قتلاً . أمـا المعتز الـذي خلف المستعين فكان سكّيراً مفتوناً بجمـاله ، منصرفاً إلى اللهو والغنـاء وتعاطي الشعـر الغزلي والخمـري ، ويختلف الى الأديرة لـلأكل والشـراب . فما ظنّـك برجـل يصبـح خليفة وله من العمر سبع عشرة سنة وبضعة أشهر(٦)!

فإذا كانت أخـلاق الحكام عـلى هذا الشكـل من الضعة والانحـطاط ومن التخلي عن روح الإسلام ، فماذا يُنتظر من المرتزقـة الأتراك الجُفـاة الأُميين ؟! والـطريف في الأمر أن المنتصر ــ وهـو لم ينتصر إلا عـلى أبيـه ، إذا كـان قتله يُعتبر نصراً ــ قـال بعدهـا عن الأتراك إنهم قَتَلَة الخلفـاء ! ويأتي عمـارة ليقول لنـا إن المنتصر تقرّب من العلويـين ، وكيف هذا ومن معـالم جَـوْر المنتصر أنـه «كتب إلى الآفاق بأنـه لا يُقبِّل علويّ ضَيْعة ، ولا يركب فـرساً إلى طـرف من الأطراف ، وأن يُمنعوا من اتخاذ العبيد إلاّ العبد الواحـد ، ومَنْ كان بينـه وبين أحد من الطالبيين خصومـة من سائـر الناس قُبِـل قول خصمـه فيه ولم يُـطلب ببيّنة »(٧)! أما الخليفة المستعين ففرّ من العاصمة الجديـدة سامَـرّاء الى بغداد ، هرباً من الأتراك ولاة أمره ، فأخرج هؤلاء من سجنهم المعـتز ، دُمية جـاهزة ، ووضعـوه على كـرسيّ الخلافـة . فكـان أن نشبت حـرب أهليـة بـين المستعـين والمعـتز ، واكتوى النـاس بارتفـاع الأسعار لانقـطاع المؤن ، لأن هذا الصـراع العائلي على السلطة دام أشهراً . وفي عهد المستعين كان الذي يحكم هـو أُمّه ، وهي للمناسبة غير عربية إنما وارد صِقِلّيَة ، فاستباحت خزائن الـدولة ، بحيث

(٦) أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ، ج٩ ص٣١٨ ـ ٣٢٢ .
(٧) المقريزي : النزاع والتخاصم ، ص٦٤ .

أضحى ابنها عاجزاً عن دفع رواتب الجند . وعندما أبت أمه معونته أعمل هؤلاء الجند فيه العذاب وأجهزوا عليه !

ما نريد أن نقوله إن الأتراك في هذه الدولة الإسلامية البائسة هم أشبه بدود الخلّ . فمن الصحيح أن الأتراك صاروا ، بحكم الظروف التاريخية وانحلال الأسرة العباسية الحاكمة ، يعبثون بالخلفاء ويرفعون ويُنزلون من يشاءون ، لكن الصحيح أيضاً أن هؤلاء الخلفاء كانوا مع الأتراك يجرون معهم في لعبة سياسية واحدة . فهم في وادٍ ، والمسلمون في شغل عنهم ، أو كما قال دِعْبِل عندما بلغه موت المعتصم وقيام الواثق بالأمر ، وكان دِعبل معاصراً الأحداث التي نتدارسها إذ كانت وفاته سنة ٢٤٦هـ ، وقد أمضى ، برغم كثرة ترحاله ، معظم حياته في بغداد ، قال :

الحمد لله لا صبرٌ ولا جَلَدٌ ... ولا عزاءٌ إذا أهل البَلا رقدوا
خليفةٌ مات لم يحزن له أحدٌ ... وآخرٌ قام لم يفرح به أحدُ [٨] .

لقد كان هناك تناقض بين الخلافة والأتراك المشاركين لها في السلطة ، لكن التناقض قام خصوصاً وأيضاً بين رجال السلطة من عرب وأتراك كفريق حاكم مستهتر ، وبين جماهير المسلمين المهمَلَة المضطَهَدَة . وسواء كان قواد الجيش وحكام الولايات أتراكاً أم عرباً فعوامل الانحلال كانت كامنة في رأس السلطة العربية الاستبدادية « الأوتوقراطية » . وسواء كان الأعوان وَصيف وأَشناس وبُغا وإيتاخ ، أم رجالاً ذوي أرومة عربية ، ففي نظام الحكم المطلق « التيوقراطي » الذي يتخذ من الدين الحنيف ستاراً لأفاعيله ، متى فسد الرأس تداعت سائر الأعضاء وسادت الفوضى . ولهذا استفحل الخروج على الدولة ، وتعاظم المدّ العَلَويّ ، واستشعرت « الرعية » أن الأوان قد حان لانعتاقها من

(٨) الأصبهاني : الأغاني ، ج٢٠ ص١٤٦ ــ ياقوت : معجم الأدباء ، ج١١ ص١٠١ ، ١١٢ .

السلطة القمعية التي سقطت مركزيتها ووهن دورها الاجتماعي والحضاري . إن القرن الثالث الهجري هو قرن الانتفاضات والتمردات والثورات ، هذه المظاهر التي تُدعى في قاموس التاريخ الرسمي « فِتَناً » . وإذا ما ثار الزَّنج بزعامة عليّ بن محمد ، فقد سبقهم الى الخروج العلويون ، والخوارج ، والزُّطّ ، والبابكيّون ، والصَّفّارون أتباع يعقوب بن الليث الصَّفّار .

ولكن السؤال الأكبر بالنسبة الى الزَّنج الذين نُعنى بهم الآن أن ثورتهم لا تعود فقط إلى عوامل سياسية ، كما يوضح عمارة بسطحية فاقعة ، إنما الشأن فيها خصوصاً أنها ثورة ذات طابع طبقي ، وبالتالي فللعوامل الاجتماعية والاقتصادية جانب عظيم في نشوئها ونجاحها الذي استمر أربعة عشر عاماً وأربعة أشهر وستة أيام (رمضان ٢٥٥ ـ صفر ٢٧٠هـ)[٩]، وكادت جيوش الزَّنج في امتدادها الحربي تهدد أبواب بغداد ! إن ما ذكره عمارة من أحوال سياسية ، على ضلال معلوماته وسوء تفسيرها ، يمكن أن يكون خلفية لدراسة غير موضوع عن هذه المرحلة العباسية . فهذه الأحوال عامل يؤخذ بالحسبان ، لكنه ليس أوحد لتعليل ثورة الزَّنج ، لأن السياسة في مطافها الأخير تعبير عن مصالح اقتصادية واجتماعية ، وبالتالي فهي مظهر « خارجي » وتعبير « إيديولوجي » لما يعتمل داخل المجتمع من صراعات وطموحات دينية وقومية وطبقية .

العوامل الحقيقية

لقد وردت على العراق قوميات كثيرة خلال ازدهار الخلافة العباسية ، فهي حاضرة إمبراطورية عظمى ، لكن مجيء الزَّنج أملته حاجة اقتصادية سنعرض لها ، فلم يكن لهم يد في إتيانهم العراق . وكانت أحوالهم الاجتماعية

(٩) الطَّبَري : تاريخ الرُسُل والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، ج٩ ص٦٦٣ .

على نحو بـالغ من البؤس والإجحـاف والإملاق ، يكـدّون عنـد أسفـل دِجْلة والفُرات في المستنقعات لاستصلاح الأراضي المشبعة بـالأملاح ، ثم لا يجـدون بعدها طعاماً لائقاً يسد معدهم الخاوية ، ولا مأوى غير العَرَاء وبيـوت الخُوْص يلجـأون إلى كنفها بعـد يوم حـاشـد بـالعمـل المضني ! لقـد جُلبـوا قسـراً من السواحل الشرقية لأفـريقيا ، وحُشـروا بعشرات الألـوف للعمل وسط ظـروف قاسية بين أنهار البصرة حيث تشيع الرطـوبة ، ويصـير الحر لـظى ، وتستفحل العلل الفتّاكة . هؤلاء البؤساء من العبيد الزَّنج كانوا أشبه بشجرة مقطوعة عن جذورها ، فهم قـد أُبعدوا عن أوطـانهم في زمن كانت النِّخـاسة فيـه رائجة ــ تُرى هل زالت حقاً أم أنها ما برحت مستمرة بأسماء وأشكال أخرى في زمننـا ؟ أليست الإمبريالية في صميمها نِخاسة جماعية لا فـردية ؟ ــ وتـزداد وطأة هـذا الحـرمان لـدى هؤلاء الزَّنـج المقطوعـين عن أصولهم الجغـرافيـة والاجتمـاعيـة والنفسية ، ذلك أن الـزَّنج الأنقيـاء ، بخلاف زَنْـج النُّوبـة والسودان ، كـانوا يجهلون العربية ، وعندما كان يتوجه قائد ثورة الزَّنج اليهم بالكلام كان يتوسّل بالمترجمين لينقلوا إليهم فحوى خُطَبه . وعندما جاء عليّ بن محمـد يشعل فتيـل الثورة لم يجد صعـوبة كبـرى في استمالـة هؤلاء العبيد التـاعسين الى صفـوفه ، كانوا بحكم ظروفهم البائسة يبحثون عن مخرج .

أما لماذا تكاثر الزَّنج بـأعداد هـائلة في منطقـة البصرة بخـاصة ، فهنـا لُبّ الموضوع . كانت التجارة في عزّ ورواج ، فشرع التجار يوظّفون رؤوس أموالهم الفـائضة في امتـلاك الأراضي الواسعـة ، من طـريق إحيـاء الأراضي المَـوَات واستصلاح البطائح . فنشأت الإقطاعات الكبيـرة ، وتشكّلت طبقة من المـلاّك الكبـار ، الى صف الخلفاء أصحـاب الضِّياع والصَّـوافي . لا يمكن فهم تكاثـر الزَّنج في العراق وقيام ثورتهم بعدها من دون التطرق الواعي لمسألـة الأرض ، وما توالى عليها منذ نشأة الدعـوة الإسلاميـة وقيام الفتـوح من تطورات ، حتى

قيام ثورة العبيد التي برزت كأحد المظاهر السياسية العاصفة لمسألة الأرض المعمول بها . وإذا لم تكن هذه المقالة المكان المناسب للتفاصيل والأرقام والتواريخ والتقييمات ، فلا بد من لمحة موضوعية خاطفة تنير السبيل .

الثورة ومسألة الأرض

لقد حال عمر بن الخطاب بين المسلمين ، زمن الفتوح ، وتملّك الأرض في الشام والعراق ومِصْر ، وجعلها بين أيدي أصحابها الأصليين يؤدّون عنها الخراج . ولم تعد هذه الأرض مُلكاً لأصحابها من أهل البلاد ، لأنها افتُتحت عَنْوة ، فأضحت ، فقهياً ، مُلكية جماعية للمسلمين كافة ، كما شرّع عمر ، وغدا خراجها بمنزلة الأجرة التي تُدفع عنها ، نظير مَنْ يكتري داراً فيدفع عنها إلى مالكها . ويؤول نفع هذا الخراج في الأَعْطِيات التي تذهب الى المسلمين العرب بخاصة . وأقرّ عمر هذا الرأي دفعاً للفتنة بين المسلمين المتلهفين إلى المغانم ،ولِمَاتجرّه المُلكية الفردية من تناحر وانحلال ، وليحفظ للأجيال القادمة من المسلمين ما ينتفعون به فلا تصير الأرض حَكَراً على جيل من الفاتحين دون غيرهم . وعلى منوال عمر جرى عثمان وعليّ . أما الخلفاء الأمويون والعباسيون فقد كان لهم مع أراضي البلدان المفتَتَحة موقف آخر ، إذ أباحوا للعرب حق تملّك الأرض ، كما ضمّوا الصَّوافي ــ وهي بموقع الأراضي الأميرية في اصطلاحنا الحديث ــ الى ضِياع الخلافة ، وكانت في السابق تعود إلى بيت مال المسلمين . وهذه الصّوافي كانت تدرّ ثروات عظمى ، ما دام أن صوافي معاوية في العراق وحده ، كما يذكر اليَعْقوبي ، كانت تعود عليه سنوياً بدخل مقداره مائة مليون دِرهم(١٠) .

وفي العهد العباسي راج إقطاع الأرض ، على أن الإيجابي منه هو إقطاع

(١٠) تاريخ اليعقوبي ، م٢ ص٢٣٣ .

الأرض المَوَات المشاع البور التي لا مالك لها وتحتاج إلى استصلاح وزراعة وجلب الماء لها ، فتعود نافعة مُدرّة ، وتغدو مُلكية فردية لمن نهض بمراحل استصلاحها . وتفيد من هذه العملية الدولة ، فالأرض المَوَات التي جرى عليها الإحياء تصير عُشْرية أو معشّرة . وإذا كان هناك من خلاف فقهي حول وجوب الخراج والعُشر على الأرض معاً ، فإن ما يهمنا ههنا ، ما دمنا نبحث في ثورة الزِّنج التي اندلعت في منطقة البصرة ، أن الجغرافيين العرب أكدوا أن هذه الأرض المُحْياة في هذه المنطقة كانت عُشْرية . جاء عند الماوردي : « وقد أجمع العراقيون وغيرهم على أن ما أُحيي من مَوَات البصرة وسِباخها أرض عشر »[11]. والسِّباخ أو الأرض السَّبْخَة هي التي يخالطها الملح ، وهذا شأن يختص به العراق . ومَوَات البصرة متأتٍ بشكل رئيس من البطائح الممتدة بين الكوفة والبصرة مروراً بواسط ، فهي مستنقعات شاسعة ملأى بالسِّباخ والآجام ، وتحتاج إلى كسح وتجفيف وزراعة لتغدو مُجزية .

لقد حملت البصرة اسمها هذا لرخاوة أرضها ، وفيها كتب الأحنف بن قيس الى الخليفة عمر بن الخطاب : « إنّا نزلنا أرضاً نشّاشة لا يجفّ ثراها ولا ينبت مرعاها »[12]. وهذه البطائح قديمة العهد في العراق ، فليست هي كما ورد لدى الجغرافيين العرب من نتاج العهد الساساني ، إنما تعود في وجودها إلى أيام الأشوريين ، وإنْ كانت مساحتها اتّسعت وضاقت بين العهود التاريخية تَبَعاً لما كان يصيب هذه البطائح من امتداد بفعل الفيضانات أو انحسار بفضل الاستصلاح . وفي الإسلام نشط الخلفاء الأمويون في عملية إحياء بعض هذه الأراضي واستخراج الضِّياع منها لأنفسهم . أما في العهد العباسي فإن الأثرياء في كعبة التجارة ، البصرة ، شاركوا الخلفاء في عملية الإحياء ، فوظّفوا أموالهم

(١١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ص١٧٨ .
(١٢) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص١٨٧ ، ١٨٩ .

الفـائضة في إحيـاء الأرض المَوَات بهـدف امتـلاكهـا ، وَفْق الحـديث النبـوي الشهـير : « مَن أحيا أرضـاً ميتة فهي لـه ، وليس لِعِرقٍ ظـالمٍ حق »[١٣] . أما اليـد العاملة الـزهيدة الثمن التي قـامت بهذا الاستصـلاح الكبير ، ومنهـا نشـأ الوقود لثورة العبيد العـاتية ، فهم الـزَّنج الـذين اقتضت الضرورة الاقتصـادية الإتيان بهم بأعداد غفيرة من السـواحل الشـرقية لأفـريقيا . وإذا كـان الزُّطّ في العصر الأمـوي هم الذين خـاضوا العمـل في البطائح وشكّلوا عنصر التمـرد والعصيان ، فقد شهد العصر العباسي ثورة اجتماعيـة ، طبقة الطابَع ، قـادها عليّ بن محمد عندما وقف على رأس الزَّنج في وجه الخلافة العباسية التي كـانت قد شرعت في التدهور باكراً ، وهذا ما ساعد ثورة الزَّنج ، بالإضافة الى مسبباتها المـوضوعيـة من اقتصاديـة واجتمـاعيـة ، من الصمـود خـلال زمن لم يكن من المأمول فيه أن تنتهي ثورة هذا شأنها الى التوطد الناجز والفوز المبين .

ونعـود إلى محمد عمـارة فقـد نسينـاه ، وحسنـاً فعلنـا ، مـا دام أن تحليله لعوامل ثورة الزَّنج أحاديّ الجـانب ، مبتذل ، مهلهـل . ونخشى إنْ مضينا في تقصيّ ركاكة عمارة أن نسطّر دراسة تنيّف في الحجم على كتيّبـه ، لهذا سنعمـد إلى الإيجاز والتكثيف ، واعدين القارىء بالعودة غير مرة الى جوانب مختلفـة من هذا الموضوع في غير هذه المقالة وقد كانت سطحية عمارة عاملاً استفزازياً حملنا على كتابتها .

« علوية » صاحب الزنج

وإذا ما تتبّعنا عمارة في الفصل الثاني « القائد والثورة » لـوجدنـا أنه يقع في هفوة إثر أخرى . فهو يذكر أن اسم صاحب الزَّنج هو عـليّ بن محمد بن أحمـد

(١٣) أبـو يـوسف : الخـراج ، ص٧٠ ــ ابن آدم : الخـراج ، ص٨٠ ــ ابن سـلاّم : الأمـوال ، ص٤٠٣ و ٤٠٤ .

ابن عيسى بن زيد ، وزيد هذا هو زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، الثائر العلَوي الشهير الذي خرج على هشام بن عبدالملك بالكوفة ، واليه تنتسب الفرقة الزيدية (ص٣٣ و ٣٤) . وعلى هذا يبني عمارة ، على نحو متسرع ، مرسلاً الكلام على عواهنه ، الحكم التالي : « ونحن نميل إلى أن عليّ بن محمد صادق في انتسابه الى العَلَويين » (ص٤٤) . ويجعل حركة الزَّنج « حلقة في سلسلة ثورات العَلَويين الزيدية » (ص٤٦) .

إن عَلَويّة صاحب الزَّنج أمر مشكوك في صحته تماماً ، وإن غالبية المصادر التاريخية تأتي على ذكر صاحب الزَّنج قائلة إنه دعيّ آل أبي طالب . يقول المسعودي عن عليّ بن محمد : « وأكثر الناس يقول إنه دعيّ آل أبي طالب ، يُنكرونه »[١٤]. ويذكر ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس يقدحون في نسبه وخصوصاً الطالبيين »[١٥]. وجاء لدى ابن الطِّقْطَقَى : « فأما نسبه فليس عند النسّابين بصحيح ، وهم يعدّونه من الأدعياء »[١٦]. وعلى هذا المنوال من النفي والتكذيب حال جُلّ المؤرخين .

إن ادّعاء عليّ بن محمد النسب العَلَوي الزيدي المتقدم الذكر جاء قُبيل قيامه بالثورة بسنة واحدة ، عندما كان في بغداد . في حين سبق لعليّ بن محمد ، في المرحلة السابقة على الثورة ، أن ادّعى نَسَباً علوياً آخر ينتهي به الى العباس بن عليّ بن أبي طالب[١٧]، وذلك عندما خرج في البحرين ودعا الناس الى طاعته . كما زعم ، عندما اضطر الرحيل إلى البادية عقب إخفاقه في البحرين ، أنه المهدي المنتظر العائد بعد الموت في شخص يحيى بن عمر

(١٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٥ ص١٠٣ .
(١٥) شرح نهج البلاغة ، ج٨ ص١٢٦ .
(١٦) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص٢٥٠ .
(١٧) الطبري : تاريخ الطبري ، ج٩ ص٤١٠ .

العلوي[18]! ويحيى بن عمر هو الإنسان الفاضل الديّن الخيّر ، ينتهي في نسبه إلى يحيى بن الحسين بن زيد بن عليّ ، وقد خرج في الكوفة على أيام المستعين داعياً إلى الرضا من آل محمد ، فلاقى حتفه قتيلاً بقرية شاهي قرب الكوفة سنة ٢٥٠هـ ، ولا عَقِب له[19].

ثم إن النَّسَبَ العلوي الزيدي لا يستقيم لصاحب الزَّنج أمره ، وذلك أن الحُصْري القَيْرواني يذكر ، نقلاً عن أبي بكر الصُّولي ، رواية ، تعليقاً على الادّعاء من أن صاحب الزَّنج هو عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد ، جاء فيها أن بين مولد محمد بن أحمد ، ومولد صاحب الزَّنج علي بن محمد المدّعي نسبه ، ثلاث سنوات[20]! ثم إنه كان لمحمد بن أحمد ولد يدعى عليّاً ، لكنه مات بعد عمر طويل وذلك إثر مقتل صاحب الزَّنج الذي سطا على اسمه ونسبه بنحو خمسين سنة[21]! وبعد استيلاء الزَّنج على البصرة وإخرابها ارتحل عنها بعض العلويين ، منهم علي بن أحمد بن عيسى بن زيد ـ أي « عمّ » صاحب الزَّنج نسباً ، إذا « صحّ » زعم قائد الزَّنج ؟ ! ـ وقد خرج إلى عليّ بن محمد والتقى به . عندها غادر صاحب الزَّنج نسبه الذي يدّعيه والذي يصله بعيسى بن زيد ، وانتمى الى يحيى بن زيد . بيد أن يحيى قُتل عندما خرج في خُراسان وهو في الثامنة عشرة من العمر ، ولم يترك في هذه الدنيا سوى بنت وافاها الأجل وهي بعدُ ترضع . وقيل إن يحيى مات وليس له من ولد[22]!

(١٨) الطبري : ج٩ ص٤١١ .
(١٩) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٥٨ ـ ابن الطِّقْطَقى : الفخري ، ص٢٤٠ و ٢٤١ .
(٢٠) زَهْر الآداب وثمر الألباب ، ج١ ص٢٨٧ .
(٢١) الحُصْري : زهر الآداب ، ج١ ص٢٨٧ ـ ابن حزم : جمهرة ، ص٥٧ .
(٢٢) الحصري : ج١ ص٢٨٧ ـ ابن حرم : ص٥٦ ـ ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ج١١ ص٢٩ .

إن علويّة صاحب الزَّنج وتنقّله في أصلاب زيد بن علـيّ مسعى سياسي في ذاك العصر لاستغـلال عطف النـاس على العلويـين الذين شكّلوا أحـد أجنحة المعارضة للسلطة القائمة ، وصـار لهم منذ كـربلاء تـاريخ مغمّس بـالدم . ثم كيف يكون صاحب الزَّنج علوياً وهو الذي أساء معاملة العلويين عقب انتصار ثـورتـه ، فـرضي ببيـع حفيـدات الحسن والحسـين وآل هـاشم جـواري لقـاء دراهم[٢٣] . وعنـدما كتب إليـه الحسن بن زيد الـذي استـولى عـلى السلطة في طَبَرستان ، سائلاً إياه عن نسبه ، أجابه صاحب الزَّنج : « ليَعْنِك من أمري ما عنـاني من أمرك والسـلام »[٢٤] . ليس « الأمـر » حـديث أنسـاب ، وإنمـا هـو حـديث سلطة . ثم أين العجب ، ألا يدّعي في عصـرنـا الكثيـرون التقـدميـةَ والاشتـراكية والـديمقراطيـة نَسَباً ؟ ! وكيف يكـون عليّ بن محمـد علويـاً ، أي منتسباً إلى عليّ بن أبي طالب ، وهو الذي كان يسبّه في جملة مَنْ يسبّ ، وذلك من فوق منبره في « المختارة » ، العاصمة التي بناها الزَّنج خلال ثورتهم[٢٥] ؟

الارهاصات الأولى

لقد أمضى عليّ بن محمد السنوات ٢٤٩ ـ ٢٥٤هـ في البحرين وباديتها ، محـاولاً الاستيـلاء عـلى السلطة من غـير أن يصيب النجـاح الكـامـل ، بسبب العصبيـة التي وقعت بين أهـل البحرين من أجله ، فـانتقل الى البـاديـة زاعـماً لأهلها أنه يحيـى بن عمر ، قتيل شاهي ، فالتفّ حـوله الأعـراب وزحف بهم الى الرَّدْم ، وهي قرية كبيرة بالبحرين[٢٦] . وفي هذه الموقعـة العظيمـة « كانت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه ، قُتلوا فيها قتـلاً ذريعاً ، فنفـرت عنه العـرب

(٢٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج٥ ص١١٦ .
(٢٤) البِيْروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص٣٣٢ .
(٢٥) ابن تَغْري بَرْدي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج٢ ص٤٩ ـ السُّيُوطي : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، ص١٤٦ .
(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ، م٣ ص٤٠ .

وكرهته ، وتجنّبت صحبته »[٢٧]. وقد ناصرته في تلك الموقعة قبائل ، كما يعدد في شعرٍ له ، من تميم وكُليب بن يَرْبوع وسعد ونُمير وكلب ، في حينَ خاصمته قبائل عامر ومحارب . وكان العُرْيان بن الهيثم الربعيّ هو الذي فتك بمن شايعوه[٢٨] ، وجعله يخرج من البحرين ونواحيها شاخصاً الى البصرة حيث شرع ، مستغلاً الاضطراب السياسي ، في الإعداد لثورة الزَّنج الكبرى . إن عمارة يدمج هذه المرحلة السابقة على قيام ثورة الزَّنج في الثورة نفسها، بحيث يجعل ، على هواه ، ثورة الزَّنج تمتد قرابة عشرين سنة بدل خمس عشرة سنة تقريباً (ص٦٤) ! علماً بأن الزَّنج لم يدخلوا حلبة الصراع والثورة في المرحلة الأولى ، إنما كان الطابع العربي القبلي طاغياً عليها .

المهم أن عمارة إياه عندما يعرض لهذه المرحلة المتقدمة على ثورة الزَّنج ، فهو يذكرها في كلام يشتمل على العموميات المرتجلة من غير معرفة بالتفاصيل ذات المغزى ولا بالمصادر حيث تكون مبثوثة فيها . وهو يستعين بلغة ليس فيها أيّ شعور بمسؤولية الكلمة عند التصدي لكتابة التاريخ ، إنما هي شعارات معاصرة لنا يلصقها على نحو كاريكاتوريّ بأوضاع قبلية وبنزاعات عشائرية ، بلا تمييز حتى بين الخُصُوم . فمحاولة عليّ بن محمد في البحرين تغدو « الشكل الأول والنموذج الأول لدولة هذه الثورة قد قام بين العرب ، وبواسطتهم» (ص٤٨) ! وموقعة الرَّدْم « هي المعركة التي انتصرت فيها الدولة على الثورة » (ص٤٩) ! ويقول عمارة في مكان آخر عن الدولة التي أقامها الزَّنج : « كان نظام الدولة « جماعياً » ، يقوم على التكافل بين أبناء المجتمع ككل ، رافضاً الفلسفة الفردية وما أثمرت من مظالم واستغلال في الاقتصاد والاجتماع » (ص٦١) ! كلام يُلقى جُزَافاً بشكل مجّاني ، من غير إدراك

(٢٧) الطبري : ج٩ ص٤١١ .
(٢٨) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص٣٩٣ .

لمدلولات المصطلحات وتاريخيتها ! هذا مع العلم أننا نفتقر حتى اليوم إلى معلومات ذات دلالة في المصادر ترشدنا إلى تنظيمات دولة الزَّنج .

نماذج معبرة

إن خلط الأمور دون مراعاة الدقة في التفاصيل صفة شائعة عند عمارة . وهذه التفاصيل مهمة في ما نحن بصدده ، لأنها تساعد على الكشف عن حقائق في تاريخنا الذي تكتنفه قضايا كثيرة تحتاج إلى بحث وتقصّ ، شأن تاريخ أيّ أُمّة . وسوف نستعرض نماذج معبّرة موضحة لما ذهبنا إليه .

فعليّ بن محمد ، كما جاء لدى ابن أبي الحديد في « شرح نهج البلاغة » ، امتهن التعليم ، فكان يتكسّب من طريق تعليم الصبيان ، وذلك عندما وفد إلى عاصمة الخلافة سامَرّاء التي استمرت عاصمة مؤقتة من المعتصِم الى المعتضِد . فإذا به عند عمارة يصبح معلم أطفال لا صبيان ، والله سلّم أنه لم يجعله معلم أطفال رُضّع ! فمن كان على شاكلة عمارة في التأليف يصبح كل تلفيق عنده ممكناً وراجحاً . والدليل أن عمارة يتساءل ، بعد تشويه معلومة ابن أبي الحديد القائلة في الحقيقة إن عليّ بن محمد كان يعلّم الصبيان الخط والنحو والنجوم[٢٩] : « ولا نعتقد أن أطفال ذلك العصر كانوا يتعلمون النجوم ! » (ص٣٥) . إن عمارة يرتكب الهفوة ويبني عليها . وكما نرى فإن المقصود بالنجوم ههنا مطالعة الغيب والتطلع إلى ما يُستقبل من الأحداث المرتقبة ، وذلك بواسطة علم النجوم أو أحكام النجوم أو التنجيم . وهذا العلم كان جزءاً أيضاً من عُدّة الكُتّاب ، وكان يجري تلقينه في كتب تعليمية ، مثل « كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » للبِيْروني . وهذا العلم كان يشتمل على مبادىء فلكية أولية ، لكنه لم يرقَ الى مستوى العلم الخالص الذي

(٢٩) شرح نهج البلاغة ، ج٨ ص١٢٧ .

اشتهر العرب بتطويره بعد البابليين والهنود واليونان ، وهـو علم الفلك أو علم الهيئة . وكان عليّ بن محمد « يعرف طرفاً من النجوم »[٣٠].

وعنـد كلام عمـارة على شعـر عليّ بن محمـد يذهب الى أن هـذا الشعر ، خصـوصاً الثـائر منـه ، « أعان الثـوار على الصمـود في القتـال » (ص٣٧) . لعمري هل كان العرب عهـدذاك مازالـوا تماماً في عصر عنترة ؟ ثم ألا يـدرك عمارة أن الزَّنـج كانـوا في غالبيتهم من الـذين جهلوا العربيـة ، وكان عـليّ بن محمد يتوسل بالمتـرجمين لنقـل أفكاره إليهم . اللهمّ إلا إذا « قصـد » عمارة أن هؤلاء المترجمين نقلوا شعر عليّ بن محمد إلى اللغات الأفريقية التي كـان يعرفهـا الزَّنج من غير العرب ، مما ينبغي ربما أن نضيفـه عندهـا إلى حركـة الترجمـة في العصر العباسي ؟!

لقد كان في صفوف الثورة زَنْج من السواحل الشرقية لأفريقيـا ، كما كـان هناك « الفُراتيّة والقرماطيّون والنُّوبة وغيرهم ممن يفصح بلسـان العرب »[٣١]. وهذه الأصناف الأخيرة ، بخلاف ما يعتقد عمارة (ص٥٤) ، هم من الزَّنـج أيضاً ولكنهم يتكلمون العربية وليسـوا دائماً في الأصـل عربـاً . إن نزولهم بـين العـرب ، بعد انتقـالهم من أفريقيـا الى العراق على مـدار السنـين وبـوسـائـل ولأغراض شتى ، أكسبهم في البيئة الإسلامية ألقاباً جديدة وتعـرّب لسانهم ، في حين أن الجموع الكبرى في ثورة الزَّنج كانت من الزُّنوج الأغراب بعـدُ على البيئـة واللغة ، وقـد جُلبـوا للعمـل عـلى استصـلاح الأراضي في منـطقـة أدنى العراق .

وعبثـاً نبحث عن الدقـة في كتابـة عمارة . فهـو يشرح « الشُّـوْرَج » بأنـه

(٣٠) مؤلف مجهول : العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، ج٤ ، ق١ ، ص١٥ .
(٣١) الطبري : ج٩ ص٤١٩ .

مسايل المياه ، و« الشُّوْرَجيين » بالعـاملين في مجاري الميـاه (ص٦٢) ! في حين أن الشُّورج أو السِّباخ هو الملح أو الطبقـة الملحية التي كـان يعمل الـزَّنج عـلى كسحها لتنقية الأرض فتغدو صالحة للزراعة . وهذه الأملاح المستخـرجة كـان يجمعهـا الـزَّنـج عـلى شكـل كُثْبـان ، « وكُسُـوح الـزَّنـج معـروفـة بـالبصـرة كـالجبـال »[٣٢] . وكـانت هنـاك فئـة من التجـار ، وهم الشُّـورجيّـون ولهم غِلمانهم ، يتعاطَوْن التجارة بهذا الشُّورج .

ويقول عمارة إن أهل البصرة انحازوا بعد يومين من القتال ، عند مهـاجمة الزَّنج لمدينتهم ، الى صف الثوار (ص٥٦) . وهو يستند في ذلك الى الطَّبَـري (ج٩ ص٤٨٢) . والجملة التي في تاريخ الـطَّبري تفيـد على الأرجـح وضمن سياق منطق الأحداث ، أن الناس مالوا إلى بُغْراج ، أحد قادة الجند بالبصرة ، ضد عليّ بن أبان المهلّبي ، الركن الكبـير في ثورة الـزَّنج[٣٣] . ومـا كان لأهـل البصرة أن يفعلوا غير هذا طبقياً ، لأن البصـرة كانت كعبـة التجارة وتصـريف الأمـوال . وكانت مهمـة بُغراج حمـاية أهـل البصـرة[٣٤] . وإن النتيجـة الأولى لسقوط البصرة وإحراقها أن التجار البصريين العريقـين في المهنة فقـدوا أموالهم الطائلة وأرواحهم أيضاً . ثم الـطريف في أمر عمـارة أنه يتكلم عـلى مساعـدة الأعـراب للثوار الـزَّنج عـلى أنها مساهمـة عربيـة في الثـورة الـزنجيـة (ص٥٦ و٥٧) . إن الأعراب البدو في أيامنا يسندون عروشاً تُسمّى عربية ، فهل هـذا

(٣٢) مؤلف مجهول : العيون والحدائق ، ج٤ ، ق ١ ، ص١٦ .

(٣٣) كـان لصاحب الزَّنج بنتـان : اقترن بـإحداهمـا عليّ بن أبـان ، وقد رُزق منهـا بولـد استعبده الموفَّق ، إثر اندحار الثورة ، وولاّه بعدها الولايات ، وكانت سيـرته محمـودة ، وآخِر مـا وُلِّي البصرة وقُتل فيها عند دخول القرامطة اليها . أما البنت الأخرى فتزوجها سليمان بن جامع ، قائد جيش الزَّنج ، وكان أسود كيّالاً من أهل هَجَر بالبحرين ، من موالي بني حنـظلة . وعقب سقوط ثورة الزَّنج كان الصلب مصير صِهْـرَيْ صاحب الـزَّنج (الـطبري : ج٩ ص٤١١ ــ ابن حزم : ص٥٧) .

(٣٤) الطبري : ج٩ ص٤٧٨ .

الإسناد منهم مساهمة أيضاً في نهضة الأمة العربية ؟! إن الأعراب ساندوا ثورة الزَّنج وأمدّوها بالمؤن ليضمنوا الأرباح الوفيرة وليكون لهم نصيب من الأسلاب والغنائم .

التوثيق لا التلفيق

إن تعاطفنا مع ثورة الزَّنج ، كونها قامت لرفع الحَيْف عن العبيد وتحريرهم ، لا يحملنا على إسدال الستار على سلبياتها ، فهذه السلبيات هي أحياناً من طبيعة العصر وبالتالي تبدو « موضوعية » . ومَنْ قال إن هناك ثورة « نقيّة » ، فهذا خيال شاعر أو ساذَج أو مزوّر ! والأماني الرائعة الحالمة غير الواقع والخِيارات الاضطرارية التي لا مفرّ منها . وليس من شيء يشوّه التاريخ غير النظر إليه عَبْرَ هالة مثالية تُغفل الضرورات . إنَّ مَنْ يقرأ دراسة عمارة يخال أن ثورة الزَّنج نموذج فريد لا يأتيه الباطل من أيّ جانب،وهو يغضّ الطَّرْف عن كل النواقص التي شابتها ، سواء كانت هذه النواقص يداخلها الغلوّ أو ملصَقَة بالثورة ربما ومحمولة عليها بغرض الطعن . وكنا نتمنى لو أن هذه المثالية الساذَجة ، التي ربما تدّعي لنفسها لقب التقدمية أيضاً ، والتي يرى من خلالها عمارة إلى ثورة الزَّنج ، ممكنة واقعياً وتاريخياً . ولكن مصادرنا المتوافرة حتى الآن ــ وعمارة لها جاهل كما سنرى ــ ونقدنا لهذه المصادر «الرسمية» غالباً، والمناوئة للثورة ، ثم تقديرنا لما في حَوْزتنا من معلومات عن الثورة في نطاق العصر ومنطق أحداثه ؛ كل هذه العوامل تحملنا على تثمين الدور الذي قام به عليّ بن محمد في قيادة الزَّنج والإخلاص لهم ، وفي الإجهاز على النظام العبودي الذي كان قد شرع يستشري في سَوَاد العراق خلال القرن الثالث الهجري . لكن هذا التقييم العلمي الذي نراه لا يسوّغ لنا الكتابة عن ثورة الزَّنج ههنا بأسلوب الرواية التاريخية العاطفية ، شأن ما يفعله عمارة ، ببراءة لا يحسد عليها ، وذلك في الفصل الثالث « الصراع والنهاية » ، ومن غير أن

يتحرى كباحث الموقع الحقيقي لهذه الثورة في سياق التطور الاجتماعي والاقتصادي والطبقي للدولة الإسلامية آنذاك .

إن التلفيق هو السمة البارزة عند محمد عمارة . فهو يقرأ بضع صفحات خاطفة في مصدر أو مصدرين ثم يبني ، ومن خلال وجهة نظر انتقائية ، أحكاماً لا تتصف بالعلم ، وإنما هي كتابة تعميمية مسطحة تتوسل الخطابة تارة والعاطفة طوراً . فما بالك بثورة كبرى نظير ثورة الزِّنج يعمد عمارة الى دراستها وليس له من عُدّة سوى أربعة مصادر تاريخية هي : الطَّبَري ، والمسعودي ، وابن أبي الحديد ، وابن خَلْدون ! وهو يقرأ فيها متسرعاً وكما يحلو له ، في حين أن المصادر المتوافرة لدينا للقيام بهذا العمل العلمي تنيّف على المائة ، بالإضافة الى المراجع الحديثة التي تناولت جوانب مختلفة من الثورة وقائدها وهي تقارب المائة والخمسين .

ليس الأمر مرهوناً على الدوام بعدد المصادر والمراجع ، ولكن ثورة الزِّنج هددت الدولة العباسية في الصميم ، وذلك أن طلائعها العسكرية وصلت الى مسافة تبعد أقل من سبعين ميلاً عن بغداد ، فاضطرت الدولة للقضاء على الثورة الى تجهيز جيش عظيم وإمداده طيلة سنوات بالمؤن وتحويل موارد الدولة الى « الموفَّقية »، المدينة التي بناها أبو أحمد الموفَّق، أخو الخليفة المعتمِد ، تجاه « المختارة » عاصمة الزِّنج ، وذلك لمواصلة القتال والمثابرة عليه طويلاً . إن ثورة كبرى بهذه الخطورة لم تحظَ في المصادر التقليدية عموماً بالتعاطف ، وإنما صاحب الزِّنج يرد اسمه مقروناً بنعوت الفاسق والخبيث واللعين وعدو الله[٣٥]. ولهذا فنحن عند التصدي لدراستها ، محتاجون الى الغوص في

(٣٥) نادرة هي العبارات التي نعثر عليها في مصادرنا وهي تُثْني على صاحب الزِّنج ، نظير هذا القول عند ابن الطِّقْطَقَى : « وأما حاله فإنه كان رجلاً فاضلاً فصيحاً بليغاً لبيباً » (الفخري ، ص٢٥٠) .

المصادر وغربلتها ، لنخرج برؤية علمية لِما كانت عليه مَجَرِيات الأحداث ومدلولاتها واتجاهاتها . ولكن محمد عمارة في عجلة من أمره ، فالمطبعة تنتظر نتاجه ! ولهذا فهو يرمينا بكتاب إثر آخر . وقد أخبرني أحد الأصدقاء من ذوي الاطّلاع أن عمارة شكر الله ذات مرة في ابتهال دام طويلاً ، وذلك حمداً لله على أنه يجهل اللغات الأجنبية ! ولكن يبدو لنا ، من خلال الفقر العلمي لكتابات محمد عمارة ، أنه يجهل من العربية الشيء الكثير أيضاً !

مصادر البحث

١ ــ أبو يوسف (ت ١٨٢هـ) : الخراج ، ط٤ ، المطبعة السلفيّة ومكتبتها ، القاهرة ١٩٧٣ .

٢ ــ ابن آدم (ت ٢٠٣هـ) : الخراج ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط ٢ ، المطبعة السلفيّة ومكتبتها ، القاهرة ١٣٨٤هـ .

٣ ــ ابن سلّام (ت ٢٢٤هـ) : الأموال ، تحقيق : محمد خليل هرّاس ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٦٨ .

٤ ــ اليَعْقُوبي (ت ٢٨٤هـ) : تاريخ اليَعْقوبي (مجلدان) ، دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦٠ .

٥ ــ الطَّبَري (ت ٣١٠هـ) : تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف بتاريخ الطبري (١١ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سلسلة « ذخائر العرب » (٣٠) ، دار المعارف بمصر ٦٠ ـ ١٩٦٩ ، ١٩٧٧ .

٦ ــ المسعودي (ت ٣٤٥هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر (٧ أجزاء) ، طبعة بربيه دي مينار وباڤيه دي كرتاي ، عُني بتنقيحها وتصحيحها ووضع جزءين من الفهارس العامة : شارل پلّا ، منشورات الجامعة اللبنانية ، قسم الدراسات التاريخية (١١)، بيروت ٦٦ ـ ١٩٧٩ .

٧ ــ المسعودي : التنبيه والإشراف ، تحقيق : دو غُوْيِه ، مطبعة بريل ، لَيْدن

. ١٨٩٣

٨ ـ أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) : الأغاني (٢٤ جزءاً) ، سلسلة « المكتبة العربية » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٦٣ ـ ١٩٧٤ .

٩ ـ ابن الفقيه (الهمذاني) (ت ٣٦٥هـ) : مختصر كتاب البلدان ، تحقيق : دو غُوْيِه ، مطبعة بريل ، لَيْدن ١٨٨٥ .

١٠ ـ الحُصْري (القَيْرَواني) (ت ٤١٣هـ) : زَهْر الآداب وثمر الألباب (جزءان) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٣ .

١١ ـ البِيْروني (ت ٤٣٠هـ) : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق : ك. إدوار ساخو ، بروكهوس ، ليبزيغ ١٨٧٨ .

١٢ ـ الماوردي (ت ٤٥٠هـ) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط ٢ ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٣ ـ ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، سلسلة « ذخائر العرب » (٢) ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .

١٤ ـ مؤلف مجهول (من القرن الخامس الهجري (؟)) : العيون والحدائق في أخبار الحقائق (ج٤ (٢٥٦ ـ ٣٥٠هـ) ، قسمان) ، تحقيق : عمر السّعيدي ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ٧٢ ـ ١٩٧٣ .

١٥ ـ ياقوت (ت ٦٢٦هـ) : معجم الأدباء (٢٠ جزءاً) ، تحقيق : أحمد فريد رفاعي ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة ٣٦ ـ ١٩٣٨ .

١٦ ـ ياقوت : معجم البلدان (٥ مجلدات) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (؟).

١٧ ـ ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ) : شرح نهج البلاغة (٢٠ جزءاً) ،

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ٥٩ ـ ١٩٦٤ .

١٨ ـ ابن الطِّقْطَقَى (ت ٧٠٩هـ) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦ .

١٩ ـ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية في التاريخ (١٤ جزءاً) ، المطبعة السلفية ، مطبعة السعادة ، ومكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٣٢ .

٢٠ ـ المقريزي (ت ٨٤٥هـ) : النزاع والتخاصم فيما بين بني أُميّة وبني هاشم ، تحقيق : جرهاردس فوس ، مطبعة بريل ، لَيْدن ١٨٨٨ .

٢١ ـ ابن تَغْري بَرْدي (أبو المحاسن) (ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (جزءان) ، لَيْدن ١٨٥٥ .

٢٢ ـ السُّيُوطي (ت ٩١١هـ) : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، المطبعة الميمنية ، القاهرة ١٣٠٥هـ .

الفصل السادس

(١)

ثورة العبيد في العراق خلال القرن الثالث الهجري

«خلاصة» بقلم : ألكسندر بوبوفيتش

كما تحقق لدينا في الفصول السابقة فإن الآراء ، حول ثورة الزَّنج وحول شخصية قائدها عليّ بن محمد ، هي في غاية الانقسام . ويتأتى هذا بالطبع من موقف المؤلفين في الدرجة الأولى ، ومن الاختلافات في تعليل الأحداث ، أو بالأحرى في اختيار الأحداث الخاضعة للتعليل . ينبغي أن لا ننسى أنه توجد أيضاً جملة من الأحكام العاجلة غير الأصيلة ، لم تُثْبَت وَفْق المصادر الأولى ، ولكن تحت تأثير مقطع لهذا الأستاذ أو ذاك . لنضف أيضاً أن هذه المصادر لا يمكن قراءتها بيسر ، كما أنه ليس من الأيسر مقارنة بعضها ببعض ، بغير الكلام على سوء نية بعض الباحثين وعلى عدم كفاءة بعضهم الآخر . لهذه الأسباب المتعددة آثرت أن أضمّ آرائي الشخصية في فصل مستقل ، وذلك لأن هدفي لم يكن بطبيعة الحال أن أعطي وجهة نظري فقط ، ولكن أن أحدد قبل كل شيء جميع المعلومات التي في حَوْزتنا . ومع هذا فمن الصحيح أنني ، في غير موضع ، لم أكن في غاية الدقة ، يضاف إلى هذا أن عدم اتخاذ موقف ، في بعض الحالات ، يوازي أخذ موقف على كل حال . الآن وقد حان وقت استخلاص بعض الاستنتاجات التي قد تفرض نفسها ، فإنني أحرص على أن أشير أن كثيراً من الأسئلة ستبقى دون جواب أو ستلقى عدة أجوبة ، وإننا ، حيال معظم القضايا الخاصة بثورة الزَّنج ، ما زلنا بعيدين عن إمكانية إعطاء

حكم نهائي . ويتضح هذا بيسر من سَوْق الملاحظتين التاليتين :

أولاً ــ إن مجموعة معلوماتنا على وجه التقريب مستقاة من مصادر ، من غير أن تكون رسمية بالفعل ، لهي كذلك على كل حال على درجة كبيرة تقريباً . ففي الواقع لا نتبين تماماً كيف كان بالإمكان ، عند سحق الثورة ، بقاء نصوص « مناصرة للزَّنج » ، إذا حدث أن نصوصاً كهذه قد وُجدت في وقت ما . أما في ما يخص المصادر التي هي بمنجاة من الانتساب إلى هذه الفئة الأخيرة ، فهي الى ذلك مغرضة جداً .

ثانياً ــ نجد أنفسنا مضطرين الى استخلاص استنتاجاتنا بواسطة عدد من الإشارات المجتزأة تقريباً . وهي لا تمثّل مع ذلك إلا جزءاً ضئيلاً من كافة الإشارات التي ينبغي أن تكون قد توافرت حول الموضوع والتي لم تصلنا . كيف نكون على يقين أن بعضاً من هذه الإشارات الضائعة لا يبدّل كلياً أو جزئياً الاستنتاجات التي تبدو منطقية اليوم ؟

شخصية علي بن محمد

إذا كنت لا أعتقد ، كما أوضحت في الفصل الثاني ، أن صاحب الزَّنج كان من أصل فارسي[1] ، غير أنه يستحيل عليّ ، في ما يتعلق بوالديه ، أن

(١) أعترف مع ذلك بطيبة خاطر أنني مأخوذ باستدلال هاينز هالم (Heinz Halm: Die Traditionen über den Aufstand Ali Ibn Muhammads, des «Herrn der Zang» المأثور عن ثورة عليّ بن محمد « صاحب الزَّنج » ، دراسة نقدية للمصادر ، أطروحة دكتوراه بالألمانية في ١٤٢ صفحة ، بون ١٩٦٧ ، ص٤٣ ـ ٥٧ ، وبخاصة ص٥٥ ـ ٥٧) الذي يرى في صاحب الزَّنج « مولى » فارسياً ، وأن مساعديه الأساسيين ينبغي أن يكونوا في غالبيتهم « مواليّ » فرساً كذلك . إن فرضيّات هاينز هالم جذّابة وإن برهنته لنبيهة وجديّة . غير أن الصعوبة تكمن في واقع أن مصادرنا لا تشير إلا إلى أنساب عربية لعليّ بن محمد ، وإنه مهما كانت مغرضة فلسنا نرى أسباباً قاهرة قد تكون حملت هؤلاء المؤلفين على اختراع (أو مساندة) هذا الأصل العربي لصاحب الزَّنج . وهكذا فإنني أظل مصرّاً على الاعتقاد ، لعدم توافر الأفضل ، بالمعلومات =

أكون أحرى باختيار نص الطَّبَري على أن أختار نص الصَّفَـدي . ففي الواقـع نحن نعرف أشياء يسيرة جداً حـول الموضـوع فليس في وسعنا أن نتخـذ موقفـاً قاطعاً .

لا أعتقـد كذلـك أن الأمر يتعلق بعَلَويّ ، لأننـا ، باستثنـاء عدة أنساب مشكوك فيها أو منحولة ، وبعض التفاصيل القابلة لأن تُفسَّر في صالح انتسابـه الى ذريّة عليّ ، لا نملك أيّ برهان يشير إلى أنه قد كان حقـاً أحد أحفـاد صهر النبي .

ليس من السهـل أبداً أن نُبـدي حُكماً بصـدد شخصيـة عـليّ بن محمـد ، وذلك لأسباب سبق لنا ذكرها أعلاه ، لكن من المؤكد أنه كان شخصاً متفوقاً ، ذكيـاً ، بليغاً ، متعلماً ، طـويل بـاعٍ في الشعر وعلم الفلك ، يعلم مـا تطوي الصـدور ، داهيـة ، مقنِعـاً ، ويعـرف كيف ينـظّم النـاس ويسيـطر عليهم (والـذين ، للمناسبـة ، لم يكن التصرف بهم بـالـغ السهـولـة) ، وهـو يملك مـواهب عسكريـة وثوريـة لا جدال فيهـا . ولنحاول الحكم عليـه تتبقى لدينـا وسيلتان ، ناقصتان على حد سواء : تحليل المعلومات القليلة المتعلقة بحياتـه ، وتحليل شعره .

إنني ، للأسف ، غير قـادر ، حاليـاً ، على أن أتكلم عـلى شعر صـاحب الزَّنج ، لأن ذلـك يتطلب ، بـادىء ذي بَدْء ، دراسـة تحليلية لأبيـات عليّ بن محمد ، ثم مقارنتها بأبيات الشعراء الآخرين المعاصرين أو السابقين على القرن الثالث الهجري . ومن جهة أخرى فقد سبق لي أن كتبت أن مهمة دقيقة كهذه

= التي تقدّمها هذه المصادر ، من أنه يتعلق الأمر برجل عاش صباه في فارس ، ولكنه كـان عربيّ الولادة كما هو شأن آبائه وأجداده . وفي حال قد أكون على خطأ فسيعني أنـه حقيقة ضـرب من رائد سابق على جمال الدين الأفغاني !

تتطلب دراسة منفصلة ، وإنني أتطلع الى القيام بها لاحقاً[٢] .

إن عدد الأبيات التي قد يكون نظمها صاحب الزَّنج ، والتي أعرفها ، ليس مرتفعاً جداً . هناك على نحو دقيق مائة وسبعة وثمانون بيتاً[٣] ، لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار الترديدات والروايات المختلفة فإن هذا العدد ينبغي أن يكون في باب المائة بيت تقريباً ، هذا إذا وافقنا على اعتبارها جميعاً عملاً شعرياً يعود حقاً الى عليّ بن محمد . إن الانطباع الأول الذي يتبدى هو أنه لدينا نماذج لقصائد من مراحل متنوعة في حياة صاحب الزَّنج : الأبيات التي تمّ نظمها أثناء مُقامه في سامَرّاء ، الأبيات التي وضعها عقب الأحداث التي فاجأته في البحرين ، وأخيراً الأبيات التي صيغت بعدها بكثير خلال الثورة .

يبدو عليّ بن محمد ، في أبيات مرحلة سامرّاء ، عَلَوياً ، ثائراً بحالة الخلافة التي يُرثى لها والتي تسوسها الأيدي التركية . وهو يُقسم على أن يُدخل خيله إلى بغداد ، حيث يعيش الناس في المعصية ، وحيث تتدفق الخمرة بغزارة . ويشكو في أبيات أخرى من المرحلة نفسها من وضعه ووضع التعساء ، أو يتمجد بنفسه .

وفي القصائد المنظومة ، عقب الأحداث التي أملت عودته من البحرين ، يعد بالثأر من قبيلة عبد القيس .

(٢) مجلة « أرابيكا » م١٢ ، ع ٢ ، لَيْدن ١٩٦٥ ، ص١٨٦ .

(٣) إن بعض هذه الأبيات قد ذكره وعلّق عليه فيصل السّامر : ثورة الزَّنج ، ص٤٦ و ٤٧ (بغداد ١٩٥٤) ــ أحمد عُلَبي : ثورة الزَّنج ، وقائدها عليّ بن محمد ، ص٢٠ ، ٢٣ و ٢٤ ، ٣٤ و ٣٥ ، ١١٠ (بيروت ١٩٦١) ــ عبدالكريم خليفة : مصادر ثورة الزَّنج ، مجموعة النصوص مع ترجمة وهوامش ، ومقدّمة حول هذه الحركة الثورية (مجموعة النصوص في ١٨٣ صفحة ، والمقدّمة في ٥٠ صفحة) ، وهي أطروحة بالفرنسية ، باريس ١٩٥٤ ــ وعبدالجبّار ناجي في دراسته : « صاحب الزَّنج الثائر الشاعر ، مع تحقيق نص الصّفدي في ثورة الزَّنج » ، مجلة « المورد » (بغداد) م١ ، ع ٣ و ٤ (١٩٧٢) ، ص١١ ـ ٢٣ .

إن الأبيات التي ستلي في ما بعد هي أيضاً أكثر ذاتية : فهي تعبّر عن حالاته الروحية وشجونه الداخلية ، وتوضح الأسباب الكامنة في أساس ثورته ، كما يستعيد فيها حبه لعليّ ويتباهى بشخصه .

لكن من الجليّ ، برغم الفائدة الجمّة التي تمثلها هذه الأبيات ، أنه قد يكون من الصعوبة بمكان أن نحاول استخلاص استنتاجات انطلاقاً من تلك الأبيات المعدودة التي تُنسب ، عن خطأ أم صواب ، الى صاحب الزَّنج .

ليس من السهل أيضاً أن نُبدي رأياً في عليّ بن محمد تَبَعاً للإشارات المتبقية لدينا عنه . أولاً لأنها قليلة الوفرة ، ثم لأنها ، في الغالب ، موضع شك أو من العسير تعليلها . إن المسألة الهامة هي طبعاً أن نحكم : هل نحن بصدد رجل مخلص ، متشبّع برسالته ، ومستعد لأن يضحّي بحياته في سبيل إصلاح اجتماعي ، أو على العكس من ذلك فنحن حيال طمّاع عديم الذمة ومتعطش الى السلطة(٤) .

إذا ما وُزنت الأمور جيداً ، في ضوء المعلومات التي نملكها ، أعتقد أنه من العسير أن نجد فيه سوى شخص توّاق لا يعوّل على أيّ مبدأ . إن بعض الأبيات التي قد تكون من نظمه توضح على كل حال هذا الموقف . وكيفما كان الأمر فإن عليّ بن محمد هو الثوري النموذج : مغمور النسب ، متعلم ، مكبّ على علوم السحر والتنجيم ، وقد عقد صلات مع رجال عصره ، فهو يتبنّى عقائد مختلفة ويشرع في عدة انتفاضات قبل أن يُشعل ثورة الزَّنج الكبرى . . .

(٤) إذا كانت هذه القضية لا تُطرح البتة لدى معظم المؤلفين ، فإن تيودور نولدكه : Sketches from Eastern History لمحات موجزة عن تاريخ الشرق (الترجمة الانكليزية) ، ص١٥٠ و١٥١ ، يبحث عمّا قد يمكن قوله بهذا الصدد . فيصل السامر يشرح رأيه بإسهاب : ثورة الزَّنج ، ص٤٧ ـ ٤٩ ، ٥٦ ـ ٦٢ . في حين أن أحمد علبي يتقدم أقل كثيراً في هذا المجال .

لكن يجب أيضاً أن نضيف ، بـلا تأخير ، أن هذا الحكم يستـدعي بعض التحفظات . ذلك أنـه كيف ينبغي أن ندرك عنـدئذ واقـع رفضه هبـة الخمسة دنانير مقابل رد كل عبد، من غير أن ننسى أنه مات بعد أن ناضل حتى النهاية، وقد أبى الأمان والمِنَح التي وعده بها الموفَّق[٥]. إن القضية تظل مطروحة ، فهي حسبما يبـدو بلا جـواب ، لأن كل نقاش يستند إلى معطيات واهية كهذه يـظهر غير ذي جدوى .

عقيدة علي بن محمد

إنها ، كما سبق ورأينا ، موضوع آخر يطرح الخلافات . هل كان شيعياً ، كـما قد يحملنـا على الافتـراض إشارات جمّـة وبعضٌ من أبياتـه[٦]؟ أو أن الأمر يتعلق بخارجيّ ، وَفْقَ الشعار الذي نلقاه عـلى رايته ونقـوده (وقد اعتُبـر لزمن طويل بمنزلة مبدأ العقيدة لـدى الخوارج)، وعـلى نحو أدق هـل هو أزرقيّ كـما يشـاء بعضهم[٧]؟ ففي الواقـع أعتقد أنـه من الأصح منـطقياً أن نـرى في هذه

(٥) وأَدَع جـانباً تفـاصيل أخـرى في صالحـه أشار إليهـا الطَّبَـري ، من غير الكلام على التصريحات الشخصية التي أبداها عليّ بن محمد في الاتجاه نفسه . راجع أيضاً هاينز هالم : المأثور عن ثـورة عليّ بن محمد ، ص١٣ ـ ١٥ .

(٦) راجع في ما سبق ، ص١٠٥ ، العبارات التي تفوّه بها عندمـا بلغه ضـرب عُنُق شاعـر شيعي . توجد فضلاً عن ذلك تفاصيل متناقضة كليّاً (راجع في ما سبق ، ص١٠٢ ، مقطع المسعـودي في مروج الذهب ، الترجمة الفرنسية ، ج٨ ص٥٧ ـ ٦١) . تنبغي الإشارة أنه بالنسبة الى هاينز هالم يتعلق الأمر ، بلا أيّ تحفّظ، بشيعي. راجع فصله : الطابع الشيعي للثورة ، المأثور عن ثورة عليّ بن محمد ، ص٣٥ ـ ٤٢ .

(٧) « وظهر من فعله ما دلّ على تصديق مـا رُمي به من أنـه كان يـرى رأي الأزارقة من الخـوارج ، لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره ممن لا يستحق القتل يشهـد بذلك عليه . وله خطبة يقول في أولها : الله أكبر، الله أكبر ، لا إلـه إلا الله ، والله أكبر ، ألا لا حكم إلا لله . وكان يرى الذنوب كلها شِرْكـاً » (المسعودي : مـروج الذهـب ، الـطبعة الفرنسية ، ج٨ ص٣١ ـ ٣٣) . ولكن على هذا يجيب موريس غودفروا ـ دومومبين في كتابـه : =

النزعة الى تبنّي عقائد مختلفة وسيلة سياسية فعّالة مسخّرة لخدمة الثورة[8]. وذلك لأنه ، بلا ريب ، بالنسبة الى صاحب الزّنج إذا ما بدا شيعياً فهذا يعني كسب عطف أعظم حزب في الإسلام . وإذا ما بدا خارجياً فهذا يعني دغدغة عواطف الجمهور الأوسع من أنصاره نظراً لمبادىء الخوارج الداعية الى المساواة .

= العالم الإسلامي والبيزنطي حتى الصليبيين ، ص٤٤٥ ـ ٤٤٩ قائلاً : « إن مؤرخاً عربياً يستعيد أنه كان يذبح الأطفال والنساء والشيوخ ، ليخلص أنه كان خارجياً ، فإن هذا مطعن وهميّ . . . » .

أما في ما يتعلق بعبارة «لا حكم إلاّ لله» فهي تطرح موضوعاً يبدو مستعصياً على التفسير، وذلك أنه كيف يمكن التوفيق بين عقيدتين متناقضتين كما هو حال الشيعة والخوارج . وليس هناك البتة سوى مقطع صادر عن بول كازانوفا (مجلة المسكوكات ، ١٨٩٣ ، ص٥١٦) يقرّ بواقع الحال هذا : « إنه لمن المستغرب أن نطالع شعار الخوارج ، أعداء عليّ ، على نقود دعيّ علويّ . من الصحيح أن نزاع الحَكَمين قد طال وجهة نظر خاصة تماماً . لقد وافق عليّ على حَكَم ليقضي بينه وبين خصمه معاوية . وأعلن الخوارج ، الملكيّون أكثر من الملك ، أن الله وحده هو الحَكَم ، وأن علياً لم يكن بوسعه أن يَدَع الآخرين يخوضون في مناقشة حقوقه . كان بالإمكان إذاً ، بعد قرنين من موت عليّ ، التبنّي التام لهذ الشعار ، والاعتراف بحقوق عليّ وآله » .

ولكن في الواقع هناك أمر آخر تماماً ، كما يشير على نحو ذكي دومينيك سورديل : « بالنسبة إليّ فإنني مُساق إلى تفسير هذه المصادفة العجيبة بالفرضيّة التي تقدّم بها وليم مونتغمري وات والتي تذهب أن شعاراً كهذا لم يكن ليُعْلَن عنه في معرض «التحكيم» الذي تقرر في صِفّين ، ولكنه يعبّر عن مطالب أعداء عثمان ، أي الأنصار الأقدم لعليّ . فهو عندها صيحة شيعية بشكل أساسي وليست خارجية ، ويمكننا أن نفهم على هذا النحو ظهورها من جديد في زمن الزّنج الذين رأسوا عليهم دعيّاً علوياً » (« أرابيكا » ، م٩ ، ع ٢ ، ١٩٦٢ ، ص٢١٥) . حينئذ فإن جزءاً من مقطع هلال الصّابي في كتاب الوزراء (أورده هربيرت بُوْبّه ، مجلة « دِرْ إسلام » (بالألمانية) ٤٤ ، حزيران ١٩٦٨ ، ص٢٧٠ ، الأسطر ٢٧ ـ ٢٩) لا داعي لمراعاته . راجع كذلك هاينز هالم : المأثور عن ثورة عليّ بن محمد ، ص٣٥ ، ٣٩ .

(٨) تيودور نولدكه : لمحات موجزة ، ص١٥١ و١٥٢ ــ وأحمد علبي : ثورة الزّنج ، ص٤٦ ـ ٤٩ ، هما أيضاً من هذا الرأي . ويبدو معبّراً جداً بهذا الشأن مقطع ورد لدى عبدالقاهر البغدادي : الفَرق بين الفِرق ، طبعة القاهرة ١٩١٠ ، ص٣٥٤ .

مما يثير الدهشة في ثورة الزَّنج (التي كانت ثورة اجتماعية قبل كـل شيء) هو غياب خطة محددة وبرنامج اجتماعي مدروس :

« حسب أقوال المؤرخ العربي ، الطبري ، فهو قد ذكّرهم بما هم عليه من سوء الحال ، وأكد لهم « أن الله قد استنقذهم به من ذلك ، وأنه يريد أن يرفع أقـدارهم ، ويملّكهم العبيد والأمـوال والمنازل » . هـذه التفاصيـل تكشف عن ضعف الحركة التي لم تأتِ ببرنـامج من الإصـلاحات الحقيقيـة ، ولم تكن حتى لتهدف إلى إلغاء الرِّقّ ، مقتصرة عـلى دفع فئـة من العبيد إلى الثـورة في سبيل تحسين وضعهم الخاص »[٩] .

لم يكن الأمر فعلاً سوى دولة جديدة ضمن الدولة ، مؤسسة على القـواعد نفسها ، لكن قد يكون من المبالغ فيه أن ندهش حيال واقع الحال من أن ثـورة الزَّنج لم تكن تهدف إلى إلغاء الرقّ . لا أرى كيف قد يكون ممكناً أن نتصور ، في صميم القرون الوسطى الإسـلامية ، إلغـاء مؤسسة كهـذه ، يُقرّ بهـا القرآن وترضى بها طبائع السلوك .

لقـد كانت ثـورة الـزَّنـج إذاً ثـورة سيـاسيـة (صـراع من أجـل السلطة) واجتماعية (تحسين الأحوال المعيشية لإحدى الطبقات)[١٠]. غير أنني ألحّ على نقطة بالغة الدقة : إنها « جزئياً » ثورة اجتماعية ، لكن لا يمكننـا الاستنتاج أن الأمر يتعلق (كما زعم بعضهم) بثـورة اجتماعيـة حقيقية مـرفقة بخـطة مقررة

(٩) برنارد لويس : العرب في التاريخ ، الترجمة الفرنسيـة ، ص٩٤. أنظر أيضـاً بهذا الصـدد فيصل السامر : ثورة الزَّنج ، ص٦٣ ــ وأحمد علبي : ثورة الزَّنج ، ص١٠٨ ـ ١١٣ .

(١٠) أكان الأمر يتعلق بالزَّنج أم « الموالي » في المقام الأول ؟ راجع حـول هذا المـوضوع رأي هـاينز هالم ، ص١٥٩ ، فهو يحاول البرهنة أن ثورة الزَّنج هي قبـل كل شيء ثـورة « الموالي » الـذين استعانوا بالزَّنج لتحقيقها .

على غِرار الأسلوب العصري . أما في ما يعود إلى الدور الذي نهض به عليّ بن محمد ، وبمشاعره الحقيقية ، وبحدود سلطته الفعلية في هذا الظرف أو ذاك ، فإن معلوماتنا لا تسمح لنا بإعطاء أحكام نهائية .

كذلك هناك نقطتان تستوقفان نظرنا : الرفض الذي واجه به يعقوب بن الليث التحالف الذي اقترحه صاحب الزَّنج ، والمقابلة غير المثمرة لهذا الأخير مع حمدان قَرْمط .

إنه لمن الغريب حقاً أن الطبري لا يشير حتى الى المراسلة الشهيرة التي قد تكون تبودلت بين عليّ بن محمد ويعقوب ، وهذا الأمر يكفي منذ الآن ليوقعنا في حَرَج . لذا من المنطقي أكثر عدم محاولة التعليل . أما في ما يتعلق بأقوال حمدان قرمط فإنني أقرّ تلقائياً أنه يمكن فهمها على وجوه عدة .

عواقب ثورة الزنج

إذا ما كانت عواقب ثورة الزَّنج متعددة ، كما سنتحقق بعد قليل ، فهناك مع ذلك مجال للحذر من المبالغات المرتكبة بهذا الصدد في بعض المؤلفات .

كما سبق ذكره فإن ثورة الزَّنج قد سهّلت كثيراً ترسيخ حكم الطُّولونيين في مصر . وبالإضافة إلى ذلك فقد أعانت أيضاً ، على نحو غير مباشر ، حركة الصَّفّارين ، كما كانت عوناً حسب الظاهر للعمليات الحربية التي قامت بها بيزنطية[11] . ولقد كانت كذلك نافعة للقرامطة الذين أجرى بعض أنصارهم

(١١) فرنسوا بوفّيه : « سوريا عشية الفتح الطُّولوني » ، مجلة « الشرق المسيحي » م١١ ، ١٩٠٦ ، ص٤٦ : « منذ ٨٧١ فإن الإمبراطور البيزنطي باسيل الأول ، مؤسس الأسرة المقدونيّة ، يعاود الهجوم بضراوة . وفي عامي ٨٧٦ و ٨٧٧ ، عشية فتح ابن طُولون ، فإن جحافله عاثت دماراً ، بغير أن تلقى مقاومة تُذكر ، في كيليكيا وشمالي سوريا من طَرَسوس إلى مرعش » .

على ما يبدو تدريباتهم الأولى على حمل السلاح في صفوف الزَّنج[١٢].

إن العواقب الاقتصادية والاجتماعية يبدو تلمّسها بالطبع أصعب بكثير. بيد أنها لم تكن من العمق بحيث قد نظن، ولا يبدو أن الثورة قد أثّرت بشكل مستمر على مجرى تاريخ الإسلام، ولا أحدثت تغييراً راديكالياً في بُنية المجتمع[١٣]. وحتى لَيَبدو أنها لم تحدث ضرراً عميق الأثر في الرِّيّ والزراعة في العراق الأدنى[١٤].

(١٢) راجع كلود كاهان: دروس في التاريخ الإسلامي، من القرن الثامن حتى الحادي عشر (محاضرات في السوربون)، الكُرّاسة الثانية، ص٦ و ٧، ٦٥ ــ ميخائيل يان دو غُوْيه: مبحث حول قرامطة البحرين والفاطميين، ص٢٦ ــ فيصل السامر: ثورة الزَّنج، ص٦٢ و ٦٣، ٧٠.

يبدو مفيداً الإشارة إلى مقطع لابن الأثير (الكامل في التاريخ، طبعة لَيْدن، ج٨ ص٤١٩ و ٤٢٠) يتصل بالسنة ٣٥٥ هـ/٦٥ ـ ٩٦٦ م حيث يأتي ذكر جيش قرمطيّ مكوّن من ستة آلاف زنجي. أنظر أيضاً ابن الأثير، ج٨ ص٤٧٥.

(١٣) هذا ما يدعونا إلى التفكير بملاحظة غوستاف فون غرونباوم: الإسلام الوسيط، ص٢١٠: «لا يمكن القول إن القضاء النهائي على هذه الحركة قد أثّر على وضع الزنجي في المجتمع الإسلامي».

(١٤) راجع كلود كاهان: دروس في التاريخ الإسلامي، الكرّاسة الثانية، ص١٤ و١٥، ٣٥ و٣٦ ــ برنارد لويس: العرب في التاريخ، الترجمة الفرنسية، ص٩٤. وهناك مؤلفون آخرون ليسوا من الرأي نفسه: نولدكه في: لمحات موجزة، ص ١٧٤ و ١٧٥، يقدّر أن مدن وقرى الفرات الأدنى لم تسترجع أبداً على الأرجح الخسائر التي أصابتها لذاك العهد. ويزعم مولر في: تاريخ (بالألمانية)، ج ١ ص ٥٧٩، أنه خلال أربعة عشر عاماً فقد تحوّل جنوب العراق وخُوزستان الى أرض قاحلة. ويكتب موريس غودفروا ـ دومومبين في: العالم الإسلامي والبيزنطي حتى الصليبيين، ص٤٤٩: «أن عشرة أعوام من المعارك والأسلاب أنهكت ثورة العبيد. ولقد توجّب بذل جهد مديد ومنسّق لإصلاح الأضرار المادية، ولإعادة حفر قنوات الرّيّ وتصريف المياه، ولإعادة بناء الزرائب، ولاجتذاب السكان. وهي مهمة تفوق قدرات سلطة بغداد. إن حرب العبيد لهي مظهر للاضطراب السياسي والاجتماعي، كما هي أيضاً سبب إضافي في انهيار الخلافة». راجع أيضاً فيصل السامر: ثورة الزَّنج، ص٥٨ و ٥٩، ٦١ ـ ٦٣.

لكن العـاقبة الأهم في ثـورة عليّ بن محمـد تكمن بـلا أدنى ريبٍ في إهمال استثمـار أراضي المَوات في العـراق الأدنى بـواسـطة اليـد العـاملة المكـوّنـة من العبيد ، وفي الزوال النهائي لورشات العمل الكبـرى هذه . ممـا أفضى حتماً إلى تحسين أوضاع حياة العبيد الـذين مارسـوا هذا العمل من قبل[١٥]. ومن جهـة أخـرى فإن الـزَّنج الـذين بَقَوْا عـلى قيد الحيـاة قد جـرى استيعابهم في الجيش العباسي ولم يعودوا إلى وضعهم العبودي السابق[١٦].

أما في ما يعود إلى عدد القتلى خلال السنوات الأربع عشرة فإن التقديرات تتراوح بين خمسمائة ألف ومليونين ونصف من الضحـايا . ويستحيـل بالتـأكيد إبـداء رأي حول هـذه النقـطة ، لكن سلفسـتر دو سـاسي سبق أن كتب بهـذا الشـأن : « أورد فخرالـدين أيضاً الـوقائـع نفسهـا بـإيجـاز ، في عهـد خـلافـة المعتمِد . فهو يذكر أنه قد هلك في هذه الحرب ، كما يجري التأكيد ، مليـونان ونصف إنسان . لست بحاجـة أن ألفت النظر إلى مـا تحتوي هـذه الروايـة من مبالغة »[١٧].

* * *

بهذا ينتهي عرض المعلومات والتحليل المتـواضع لهـا والتي بقيت عن ثورة العبيد في البصرة لأحد عشر قرناً خلت.

إن كتاباً عن التاريخ يُستبدل دائماً بكتاب آخر ، وهذا بدوره لا ينجو بتاتـاً

(١٥) إن عبدالعزيز الدُّوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ص١٠٥ ، يفكر أيضاً بنشأة الروح الطبقية.
(١٦) هاينز هالم : المأثور عن ثورة عليّ بن محمد ، ص١١٣ ، يعتقد بالمقـابل أن العبيـد قد أعيـدوا إلى أسيادهم القدامى ، وهذا مما يبدو لي حقاً بعيد الاحتمال .
(١٧) منتقيات من الأدب العربي القديم ، ط٢ ، باريس ١٨٢٦ ، ج١ ص٩٠ .

من سَرَيان القاعدة عليه . إن آخرين سيعودون لمعالجة الموضـوع نفسه ، وربما أنا أيضاً ، وذلك لاقتراح تفسيرات جديـدة وخلاصـات أصحّ ، معـوّلين عـلى قاعدة من الأفكـار المترابـطة الدقيقـة . وذلك ، كـما يبيّن مكسيم رودنسـون : « إننـا نفتقر جميعـاً إلى الخيال بشكـل يُرثى لـه حيـال مكتشفـات الغـد . لكن التجدد الدائم لـلأفكار التـاريخية ـ حتى في حـال أن التوثيق لا يـزداد إلا على نحو متواضع ـ يتحدى باستمرار عجزنا الروحي » .

(٢)

دراسة نقدية بصدد "خلاصة"

بوبوفيتش حول ثورة الزَّنج

إن الدراسة التي ترجمناها للقارىء العربي (ثورة العبيد في العراق خلال القرن الثالث الهجري) هي المقطع الختامي « خلاصة » (ص١٧٥ ـ ١٨١) من كتاب المستشرق ألكسندر بوبوفيتش (اليوغسلافي الأصل) : ثورة العبيد في العراق خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، منشورات غوتنر ، باريس ١٩٧٦ . وسبق لنا عندما كان الكتاب ما يزال أطروحة للدكتوراه الجامعية ، وقد حملت عهدها عنواناً مغايراً هو « عليّ بن محمد وثورة العبيد في البصرة » (كلية الآداب في السوربون ، باريس ١٩٦٥) ، أن كتبنا بحثاً نقدياً مستفيضاً حول هذا العمل[١]. وقد أخذ الباحث بوبوفيتش ببعض ما جاء في نقدنا عند نشر عمله في الكتاب الحالي . لكن يستأثر باهتمامنا الآن ، ونحن نقدّم هذه الخلاصة لكتاب تجميعي أكاديمي رصين ، أن نسجل بعض الملاحظات النقدية المفصّلة .

شخصية صاحب الزنج

يوضح بوبوفيتش أنه للتعرف على شخصية عليّ بن محمد تُعْوِزنا المعلومات

(١) راجع كتابنا : الإسلام والمنهج التاريخي ، ص٢٥ ـ ٦٢ .

التاريخية الموثوقة ، وليس في حَوْزتنا للحكم على صاحب الزَّنج سوى وسيلتين متبقيتين ناقصتين أيضاً : المعلومات المتناثرة الشحيحة في المصادر حول حياته ، ثم هناك ما تركه لنا من شِعر منسوب إليه يمكن درسه وتحليله[٢] . وفي برنامجنا الدراسي للأيام المقبلة الإكباب على شعر عليّ بن محمد ومحاولة تجميعه وتقييمه وتثمينه ، وقد كتبنا حديثاً دراسة تمهيدية بهذا الشأن عنوانها : صاحب الزَّنج « الشاعر » . ولكن لا تفوتنا الإشارة أن محاولة فهم شخصية صاحب الزَّنج بالذات في بُعْدها الحقيقي والتاريخي ، وذلك من خلال شعره ، عملية تكتنفها المغامرة وتستأهل البحث والتَّسْآل . إذ هل يعكس العمل الأدبي دائماً شخصية صاحبه ؟ نزعم أن هذا التطابق نعثر عليه لدى عدد قليل من الكتّاب ، خصوصاً الشعراء منهم . وكم من أدباء تتعرف بهم فتصاب بخيبة أمل كبيرة ، لأن الصورة الجسدية والخُلُقية والمزاجية التي كوّنتها عنهم ، عَبْر أعمالهم وإلهاماتهم ، تكاد تكون أحياناً مفارقة للواقع الذاتي وللشخصية التي أبدعت هذه الأعمال ! وهذا الموضوع يطرح إشكالات جمّة ليس ههنا مكان تناولها ، على أن المهم أن شعر عليّ بن محمد يمكن أن نستشفّ من خلاله طموحات صاحبه والمُناخ السياسي الذي كان سائداً لعهده، وذلك من غير أن نبالغ في التقدير ونتخذه « وثيقة » تاريخية ، فحكاية أصدق الشعر أكذبه لهي في البال وتراود الخاطر . فكيف إذا كان الشعر سياسيّ الهوى ، يتطلّع منشده إلى السلطة ، وقد يدّعي من الأنساب والأهواء ما هو « ضروري » لبلوغ ما يزيّنه له الطموح أو الطمع . لهذا نجد بوبوفيتش نفسه يتحفّظ بعد ذلك في الاعتماد على شعر صاحب الزَّنج ، قائلاً إنه برغم فائدته الجمّة « قد يكون من الصعوبة بمكان أن نحاول استخلاص استنتاجات انطلاقاً من تلك الأبيات المعدودة التي تُنسب ، عن خطأ أم صواب ، إلى صاحب الزَّنج »[٣] .

(٢) Alexandre Popovic: La Révolte des Esclaves en Irak au IIIe/IXe siècle, p. 176.

(٣) Popovic: La Révolte des Esclaves en Irak, p. 177.

وفي ما يتعلق بشخصية عليّ بن محمد ومحاولة الحكم عليها هل كانت صادقة أم دعيّة ، مؤمنة بما نهضت به أم نَهِمة إلى السلطة ، فإن تيودور نولدكه في كتابه « لمحات موجزة عن تاريخ الشرق » لا يزيد على القول حول هذه النقطة : « وفي الحقيقة نحن نعرف أكثر بكثير بصدد أعماله الحربية مما نعرف بصدد شخصيته الحقة »[٤]. أما فيصل السّامر فيجيب على التساؤل السابق قائلاً : « إن الذي يصل إليه الباحث في حركته أنه كان مخلصاً للدعوة التي تبنّاها ، وقد عرضتْ له فرص عديدة كان يستطيع أن يثري عن طريقها لكنه عزف عنها »[٥]. هذه هي المعالجة المقتضبة الخاطفة التي ذكرها « السّامر »، لأن الصفحات المتبقية التي أشار إليها بوبوفيتش من كتاب « ثورة الزّنج » (ص٤٨ و ٤٩ ، ٥٦ ـ ٦٢) لا تتناول الناحية التي نقف عندها ، بل تعالج موضوعات العنف الذي اكتنف تصرّفات الزّنج ومحاولة تعليله ، والصبغة الدينية العقائدية التي أسبغها عليّ بن محمد على ثورته ، والطابَع الطبقي لانتفاضة هؤلاء العبيد ، وأخيراً ما ألحقت ثورة الزّنج من خسائر مادية كبرى باقتصاديات العراق .

وقد وقفنا من شخصية عليّ بن محمد موقفاً مغايراً بعض الشيء . إذ خلصنا ، بعد إمعان في مراحل حياته وجوانب عقيدته ، أنه من طينة المغامرين التوّاقين إلى السلطة ، وأن هذا التَّوْق عنده التقى مع توق الزّنج الى التحرر من العبودية التي يرسفون في أغلالها ، فحصل تلاقٍ بينهما ، وحدث إخلاص متبادل على قاعدة المصلحة المشتركة[٦]. وقد عاودنا بحث هذه النقطة في مؤلّف آخر حيث أوضحنا أن المصادر المتوافرة حتى الآن عن ثورة الزّنج لا

(٤) Theodore Nöldeke: Sketches from Eastern History, p. 150.

(٥) فيصل السّامر : ثورة الزّنج ، ص٤٧ .

(٦) راجع كتابنا : ثورة الزّنج ، وقائدها عليّ بن محمد ، ص١١٠ و ١١١ .

تسمح لنا أن نذهب أبعد من ذلك ، وأن نزعتنا الخفيّة تشدّنا إلى تصوّر عليّ ابن محمد على أنه البطل المحرر للعبيد بشكل مطلق ، غير أن هذا يدخل في عملية تجميل التاريخ[7]. ولقد قال لي ذات مرة أستاذي وصديقي الجليل المرحوم رئيف خوري ، عقب قراءته كتابي عن ثورة الزَّنج ، إن الأمر يحتمل أكثر ! فأجبته يومها أن هذا الاحتمال يدخل في أحاسيسي ، لكني لا أملك بعدُ ، علمياً ، القرائن عليه . فلكم يبدو جميلاً أن نعتبر عليّ بن محمد بمنزلة « سبارتاكوس » عربي تحيط به هالة من البطولة الفائقة والنوايا الطاهرة والمساعي الخارقة ! إن إعادة كتابة تاريخنا ، على نحو علمي ، مهمة لا يستهان بها ، وتغدو أكثر فأكثر ضرورية ولا تحتمل التأجيل . إن « التاريخ » الذي نطالعه هو عموماً تاريخ رسمي سُلْطوي ، يجعل الثورات فِتَناً ، والمطالبة بالعدالة الاجتماعية مُرُوقاً ، والإصرار على تطبيق الإسلام بمثاليته المعهودة دعوة خارجيّة أو قَرْمطيّة أو باطنيّة !

ولا نرى بداً من أن نلاحظ أن ألكسندر بوبوفيتش يعيد في كتابه موقفنا إياه من قضية شخصية صاحب الزَّنج ومحاولة الحكم عليها . فما ذكره ينحصر في فكرتين : الأولى أن عليّ بن محمد شخص يطمع في تولي السلطة وقد توسّل إليها بتبنّي عقائد مختلفة (وهذا ما عالجناه بإسهاب في كتابنا : ثورة الزَّنج ، وقائدها عليّ بن محمد ، ص٢٧ ـ ٤٩) ، كما أقدم عليّ بن محمد على محاولات عديدة لاقتناص الحكم قبل قيادته الزَّنج (راجع كتابنا : ص١١ ـ ٢٦) . وفحوى الفكرة الثانية لدى بوبوفيتش هو غياب البرنامج الاجتماعي عند صاحب الزَّنج ، وهذا الموضوع تناولناه ضمن معالجتنا أسباب إخفاق الثورة ، تحت عنوان : افتقار « البرنامج الثوري » (ص١٠٨ ـ ١١٣) . وينتهي بوبوفيتش إلى إبداء التحفّظ وإلى أن المسألة تظل مطروحة لأن معطياتنا لا

(٧) راجع كتابنا : الإسلام والمنهج التاريخي ، ص٤٦ ـ ٤٨ .

تكفي[٨]، وهذا ما سبق لنا أن أبديناه !

شاعرية « صاحب الزنج »

إن دراسة عبدالجبّار ناجي[٩] حول هذا الموضوع لا تقدّم جديداً ، لأن التعويل كله فيها قائم على نص صلاح الدين خليل بن أيْبك الصَّفَدي (ت ٧٦٤هـ) في مؤلَّفه الكبير « الوافي بالوفيات » . وقد اعتمد عبدالجبار ناجي في ترجمة الصّفدي لصاحب الزَّنج على مخطوطة توب قوبي سراي بإسطنبول . غير أنه سبق للمستشرق ألكسندر بوبوفيتش نفسه أن نشر نص الصّفدي هذا نقلاً عن مخطوطة الوافي بالوفيات الموجودة في المتحف البريطاني ،وذلك منذ عام ١٩٦٥ في مجلة « أرابيكا »[١٠]. على أن ما يهمنا إيراده ههنا أن أبيات الشعر التي عرضت في هذا النص تبلغ الستة والثلاثين ، وأن ثلاثة وعشرين منها يتفرد الصّفدي بذكرها حتى الآن . وعند المقارنة بين نص بوبوفيتش ونص عبدالجبار ناجي يتبين لنا أن الأبيات الشعرية قد وردت مضطربة لدى بوبوفيتش وتحتوي على أخطاء عديدة ، في حين أن ناجي الذي ذكر الأبيات ضمن دراسته التمهيدية وحذفها من النص المحقق ــ مما أثار دهشتنا لأن هذا التصرف يخالف الأسلوب العلمي المألوف ــ قد أتى على الأبيات بشكل صحيح . أما موضوع شاعرية قائد الثورة فلا نجد داعياً للتوسع فيه ههنا ، لأننا كتبنا ، كما أشرنا سابقاً ، دراسة مستقلة مكثّفة حوله .

الثورة وقضية الزراعة

وهناك نقطة في « خلاصة » عمل بوبوفيتش تستوقف النظر ، وربما تدعو إلى

(٨) Popovic: p.p. 177-179.

(٩) عبدالجبّار ناجي : « صاحب الزَّنج الثائر الشاعر ، مع تحقيق نص الصّفدي في ثورة الزَّنج » ، مجلة « المورد » م١ ، ع ٣ و ٤ (١٩٧٢) ، ص١١ ـ ٢٣ .

(١٠) A. Popovic: «Quelques Renseignements Inédits Concernant «Le Maître des Zang» Ali b. Muhammad», Revue «Arabica» t. 12, fascicule 2 (1965), p.p. 175-187.

شيء من العَجَب ! إذ هو يتبنّى في المتن، معوّلاً على رأي كلود كاهان ، أن ثورة الزّنج لم تكن خطيرة الأثر من حيث العاقبة الاقتصادية ، وأنها لم تكن ذات أثر بعيد وضرر عميق في الرّيّ والزراعة ، وذلك في نطاق العراق الأدنى حيث دارت رحى معاركها الدامية وأحداثها الجسام[11]. ولكن مما لا ريب فيه أن الثورة التي امتدت قُرابة خمسة عشر عاماً (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ) قد أحدثت اهتزازاً ديمغرافياً ، إذ توالى الهجوم من أنصار صاحب الزّنج على المدن والقرى وسقطت البصرة بين أيديهم ، ثم ما أعقب ذلك كله من ثورة معاكسة نهضت بها السلطة وقادها بعناد وإصرار الموفّق ، أخو الخليفة المعتمِد . ذاك الهجوم الثوري وهذا الهجوم السُّلطَوي المضاد قد أدّيا حتماً إلى فرار السكان وجلائهم وهجرتهم ، خصوصاً أهل المدن ، إلى نواحي شتى وأمصار متفرقة .

ولا أدلّ على ما تقدّم من تهجير وتشريد أن الكثيرين من أهل البصرة قد جلوا عنها قبل استيلاء الزّنج عليها سنة ٢٥٧هـ . جاء لدى الطَّبَري في كلامه على صاحب الزّنج : « ولمّا كان من أمره ما كان بالأهواز بعد الذي كان منه بالأُبُلّة ، رَعَبَ أهل البصرة رعباً شديداً ، فانتقل كثير من أهلها عنها ، وتفرّقوا في بلدان شتى ، وكثرت الأراجيف من عوامّها »[12]. وهذا واضح لدى ابن خَلْدون الذي يذكر أنه عقب استيلاء الزّنج على الأهواز سنة ٢٥٦هـ « فخاف أهل البصرة وافترق كثير منهم الى البلدان »[13]. وبعد اقتحام الزّنج البصرة وفتكهم بأهلها « هرب الناس منهم كل مهرب »[14]. ومن الطبيعي ، والحال هي الحال ، أن يقال : « فهرب باقي أهلها بأسوأ حال »[15]. وتخبرنا المصادر التاريخية أن الزّنج

(١١) Popovic: p. 180.

(١٢) تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف بتاريخ الطَّبَري ، ج٩ ص٤٧٣ .

(١٣) كتاب العِبَر وديوان المبتدا والخبر المعروف بتاريخ ابن خَلْدون ، م٣ ص٦٤٠.

(١٤) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ج١١ ص٢٨ .

(١٥) ابن العِماد : شَذَرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب ، ج٢ ص١٣٦ .

عندما دخلوا سنة ٢٦٤هـ مدينة واسط واستباحوها هجّ الناس وخرجوا حُفاة عُراة على وجوههم[١٦]. وعندما تقدّم زحف الزَّنج في منطقة سَوَاد العراق استولَوْا على جَبُّل والنُّعمانية سنة ٢٦٥هـ، واستبيحت رامَهُرْمُز سنة ٢٦٦هـ. وبلغ الزَّنج جَرْجَرايا، وهي تقع بين واسط وبغداد[١٧]، «فدخل أهل السّواد بغداد»[١٨].

إن التهجير القسري اتّسع نطاقه، تَبَعاً لامتداد فتوحات الزَّنج، ثم ما أعقبها من معارك مضادة نشطت بها الخلافة للقضاء على الثورة. ولهذا نجد عند الطّبري الخبر التالي، إثر الإجهاز على ثورة الزَّنج ومقتل صاحبها «الفاجر» «الخبيث» «عدو الله»: «وأمر الموفّق أن يُكتب إلى أمصار الإسلام بالنداء في أهل البصرة والأُبُلّة وكُوَر دِجْلة وأهل الأهواز وكُوَرها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزَّنج بقتل الفاسق، وأن يؤمروا بالرجوع إلى أوطانهم»[١٩]. ولا شك أن الناس المشتتين بفعل الحرب قد لبّوا النداء، وذلك أن الموفّق ظل هناك في «الموفقيّة» مقيماً «ليأمن الناس بمُقامه»، في حين أرسل ابنه أبا العباس الى بغداد مصحوباً برأس صاحب الزَّنج منصوباً على رأس رُمح[٢٠]. وقد بنى الموفّق مدينة الموفقيّة وتوسّع فيها، وذلك إزاء عاصمة الزَّنج الحصينة جداً «المختارة» والواقعة على نهر أبي الخصيب. وكان من التحوّط العسكري لدى صاحب الزَّنج ومن دهائه في تحصين عاصمته أنه «نصب فيها المجانيق والأسلحة بما بهر العقول»[٢١]. وهكذا اضطر الموفّق الى

(١٦) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٣١٩ ـ مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج٤، ق١، ص٣٩ ـ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٨ ص١٦٤ ـ ابن خلدون: م٤ ص٤١.

(١٧) ياقوت: معجم البلدان، م٢ ص١٢٣.

(١٨) ابن الجَوْزي: المنتَظَم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥، ق٢، ص٤٥، ٤٩ و٥٠ ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣ ص٦٦ ـ ابن العماد: ج٢ ص١٤٧، ١٥١.

(١٩) تاريخ الطبري، ج٩ ص٦٦٣.

(٢٠) ابن خلدون: م٣ ص٦٩٠ و ٦٩١.

(٢١) الذّهبي: سِيَر أعلام النبلاء، ج١٣ ص١٣٥.

التضييق على المختارة لإسقاطها مدة ثلاث سنوات كاملات ونصف[٢٢]، وذلك « حتى أنس الناس وعاودوا أوطانهم ووثقوا بالراحة من أسباب الخبيث »[٢٣]. لقد خيّم الأمان على المنطقة إثر المعارك التي دامت طويلاً وأبلى خلالها صاحب الزَّنج بلاء رائعاً وصموداً عجيباً . « وأمن الناس ، وتراجعوا الى المدن التي أخذها وهي كثيرة كواسط ورامَهُرْمُز »[٢٤]. لقد نادى الموفّق بالأمان « وأنْ يرجع كل مَنْ كان أُخرج من دياره بسبب الزَّنج الى أوطانهم وبلدانهم »[٢٥].

ومن بديهيّات الحرب أنه لا يتأتى عنها إلا الخراب واضمحلال جنى العمر ، إذ إن « مناقبيّة » الحرب لشهيرة ! فثورة الزَّنج شاءت أم أبت ، عن حسن نيّة رجالها أم بغيرها، قد استباحت وانتهبت وأحرقت وظفرت بالخيرات والمواسم والمواشي والأثاث والمَتَاع والنساء . ونسارع إلى القول إن الثورة المضادة أشرعتها الخلافة في وجه الزَّنج ، حفاظاً على سلطتها المهددة حتى في عقر دارها ، ما دام أن الزَّنج قد أضحَوْا على مسافة تقل عن سبعين ميلاً من بغداد ، وكانت وجهتهم عاصمة الخلافة نفسها[٢٦]. لقد كان الخطر مستفحلاً داهماً على بيضة الإسلام ورمز الخلافة العظمى ، فإن الذّهبي يقول عن صاحب الزَّنج : « وكاد أن يملك بغداد »[٢٧]! إن الثورة المضادة قد نحا جُندها وغِلمانها النحو عينه في التعامل « الأعرابي » من سلب ونهب وتحريق وتقتيل واستحواذ على الغنائم والأموال والحريم[٢٨]. ولكن الكر والفرّ بين

(٢٢) ابن خلدون : م٤ ص٤٣ .
(٢٣) مؤلف مجهول : ج٤، ق ١ ، ص٥٨ .
(٢٤) السُّيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٦٤ .
(٢٥) ابن كثير : ج١١ ص٤٤ .
(٢٦) ابن عِنَبة : عُمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، ص٢٩٢ .
(٢٧) سير أعلام النبلاء ، ج١٣ ص١٣٠ .
(٢٨) الطبري : ج٩ ص٦٤٨ و ٦٤٩ ـ ابن خلدون : م٣ ص٦٨٧ و ٦٨٨ .

الفريقين المتصارعين ، المتحاربين بلا هوادة ، قد نتج عنهما هدر اقتصادي عظيم وخراب عمراني فادح . يكفي أن البصرة ، المدينة التاريخية التجارية المصرفية العريقة ، يذكرها اليَعْقُوبي ، عقب دخول الزَّنج إليها سنة ٢٥٧هـ ثم خروجهم منها ، فيقول : « ورجع قوم ، فلم يجدوا منزلاً يُسكن »[٢٩] . ولا ريب أن الطبيعة أكملت في السنة التالية ما عمل الزَّنج بالبصرة من حرق وهدم ، إذ إن البصرة تعرضت في سنة ٢٥٨هـ إلى هدّات كثيرة « تساقط منها أكثر المدينة ومات فيها أكثر من عشرين ألف إنسان »[٣٠] .

ومن البديهي أن هذا الخراب العمراني والاقتصادي قد شمل الزراعة ، بسبب فرار الكثيرين من المزارعين في بقعة دعاها العرب أصلاً بالسَّوَاد لكثافة الخضرة فيها من أشجار النخيل وغيرها ومن المزروعات على أنواعها ، إذ السّواد عندهم هو الأرض العامرة[٣١] . وجاء لدى الطّبري عن عليّ بن محمد : « وبثّ أصحابه يميناً وشمالاً يغير بهم على القرى ، ويقتل بهم الأَكَرَة وينهب أموالهم ويسوق مواشيهم »[٣٢] . ومع رحيل الأَكَرة الذين يحرثون الأرض ويزرعونها في عراق يحتشد بآلاف الأنهار ، فقد بارت الأرض وضاع خَرَاجها على السلطة . وآلت الأمور المالية إلى حال صعب بسبب تدنّي المواسم الزراعية بعد اندلاع ثورة الزَّنج وتفشّيها في المنطقة اتساعاً وانتشاراً ، وتضعضع نظام الريّ ، وهرب الكثيرين من الناس ، وخَشْية المزارعين من ضَيَاع غِلالهم من طريق النهب أو المصادرة من هذا السبيل أو ذاك . لهذا نجد الموفّق ، إثر هزيمته المنكرة أمام جموع الزَّنج يتراجع سنة ٢٥٨هـ الى مدينة

(٢٩) تاريخ اليعقوبي ، م٢ ص٥٠٩ .
(٣٠) ابن الجوزي : ج٥ ، ق ٢ ، ص٨ .
(٣١) الصّابي : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، ص٦٨ .
(٣٢) تاريخ الطبري ، ج٩ ص٤٣٧ .

واسط وقد انفرط عِقْد مَنْ كان بصحبته من جنده وقواده وهم مواليه وغلمانه ، فمضى الموفّق بعدها من واسط إلى سامَرّاء[٣٣] .

المهم أن الموفّق كان يتأهب لمعاودة مناجزة الزَّنج فقال لكاتبه ، صاعد بن مَخْلَد ، إن خزانته ليس فيها من المال ما يُعتدّ به للتجهيز فتدبّر الأمر . وكان صاعد بن مَخْلد نافذاً عند الموفّق ، واستكتبه سنة ٢٦٥هـ[٣٤] . ولقد كان نصرانياً ثم أسلم[٣٥] ، « وكان من أحسن مَنْ أسلم ديناً »[٣٦] . واستوزره الموفّق بعدها ولقّبه « ذا الوزارتين »[٣٧] . ولئن « كان صِفْراً من الأدب »[٣٨] فقد كان صاعد يعرف تماماً كيف يدير الأحوال ويحصّل الأموال ، ما دام أن غلّته الخاصة من ضِياعه وضِياع وَلَده بلغت مليون دينار[٣٩] ! فما كان من هذا الكاتب الماهر إلّا أن بادر إلى إصلاح إقطاع كبير كان للخيزران ، أم الرشيد ، ثم تعطل وخرب . فأمّن البَذْر للأرض ، والبقر للفلاحة ، والمال الضروري لحفر القنوات الخربة ، ولدفع ما يتوجب للأَكَرة أي حُرّاث الأرض والمزارعين ، والتُّنّاء أي المقيمين من السكان مفردها التّانِىء[٤٠] .

فتحصّل من مسعى صاعد ربح عظيم ، مما أعان الموفّق على التقوّي بالمال ومعاودة مقاتلة « الخائن » ، أي صاحب الزَّنج . ولهذا ندرك فحوى العبارة

(٣٣) الطبري : ج٩ ص٤٩٩ و ٥٠٠ ــ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، م٧ ص٢٥٥ و ٢٥٦ .
(٣٤) الطبري : ج٩ ص٥٤٤ ــ ابن الأثير: م٧ ص٣٢٧ .
(٣٥) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٥ ص١٤١ ــ الحُصْري : زَهْر الآداب وثمر الألباب ، ج١ ص٢٨٦ .
(٣٦) الصَّفَدي : الوافي بالوفيات ، ج١٦ ص٢٣٣ .
(٣٧) السيوطي : ص٣٦٥ .
(٣٨) الصفدي : ج١٦ ص٢٣٣ .
(٣٩) الصفدي : ج١٦ ص٢٣٥ .
(٤٠) الأزهري تهذيب اللغة ، ج١٤ ص٣٢٤ .

التالية الواردة في أخبار سنة ٢٦٩هـ عند الطّبري : « وافى عسكر أبي أحمد صاعدُ بن مَخْلد كاتبه ، منصرفاً إليه من سامرّاء ، ووافى معه بجيش كثيف قيل إن عدد الفرسان والرجّالة الذين قدموا كان زهاء عشرة آلاف . فأمر الموفّق بإراحة أصحابه وتجديد أسلحتهم وإصلاح أمورهم ، وأمرهم بالتأهب لمحاربة الخبيث »(٤١). ويقول صاعد بن مَخلد : « وطالبتُ الأقوياء بالزراعة من أموالهم ، وحرصوا هم أيضاً الحرص كله ، لمّا رأَوْا الماء ، وأن الضِّياع معطّلة منذ سنين كثيرة ، وطمعوا في كثرة الرَّيْع ، ووفور الأسعار في النواحي ، فزرع الناس بالرغبة والرهبة ، حتى استنفذوا جهدهم »(٤٢). وقد « كافأه » الموفّق بعدها سنة ٢٧٢هـ بأن قبض عليه وعلى جميع أهله ونهب منازلهم، وكان صاعد عائداً مظفّراً من فارس إلى واسط بعد أن قضى على عمرو بن الليث الصَّفّار(٤٣)!

وبعد هذا كله أليس من حقنا أن نتساءل إذا لم يكن لثورة الزَّنج يدٌ طولى في هذا الغلاء الجنوني الذي نقرأ عنه من أن كُرّ الحِنْطة أضحى ثمنه في بغداد طَوَال شهور من سنة ٢٦٠هـ ، أي عقب ست سنوات من اندلاع ثورة الزَّنج وتحقيق انتصاراتها الكبرى ، مائة وخمسين ديناراً(٤٤)! وارتفع ثمن كُرّ الشّعير في بغداد إلى مائة وعشرين ديناراً(٤٥)! في حين نجد أن سعر كُرّ الحنطة حوالى سنة

(٤١) تاريخ الطَّبري ، ج٩ ص٦٤٩ . وقد وردت المعلومة نفسها معدَّلة لدى مؤلف مجهول في كتابه « العيون » (ج٤ ، ق ١ ، ص٥٤) ولكن ضمن أخبار سنة ٢٦٨هـ .

(٤٢) التَّنُوخي : نِشْوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، ج٨ ص١٥٣ ـ ١٥٥ .

(٤٣) الطبري : ج١٠ ص٧ ، ١٠ ــ ابن الأثير : م٧ ص ٤١٤ ، ٤١٩ ــ ابن خلدون : م٣ ص٦٥٨ .

(٤٤) ابن الجوزي : ج٥ ، ق ٢ ، ص٢١ ــ ابن تَغْري بَرْدي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج٣ ص٣١ ــ السيوطي : ص٣٦٤ ــ ابن العماد : ج٢ ص١٤٠ .

(٤٥) ابن كثير : ج١١ ص٣١ .

٢٥٨هـ كـان ينيّف على العشـرين ديناراً[٤٦]. والكُـرّ لذاك العهـد مكيال عنـد أهل العراق يبلغ ستّين قَفِيزاً، والقفِيز بدوره يبلغ ثمانيـة مكاكيـك ، والمكُّوك صـاع ونصف[٤٧]. وهذا البـوار الذي أصـاب الزراعـة فكاد يشلّهـا ، وعطّل الضِّياع بحاصـلاتها الـوفيرة ، ومنهـا الحنطة والشّعـير ، قد دام سنـين طويلة . صحيح أن الغلاء الفـاحش المتقدم الـذكر لم يكن مقتصـراً على العـراق وشمل بعض بـلاد الإسـلام ، ولكن استفحـالـه في العـراق الـذي ينضـح بـالأنهار والخيرات الزراعية له دلالة ومغزى ، وكان يمكن على الأقـل ، لو أن الأحـوال مستقرة وثورة الزَّنج ليست في عنفوانها ، تخفيف آثاره الى حد ملموس .

فكيف بعد هذا كله يذهب بوبوفيتش أن الأمر أهون مما نـظن ؟ مع العلم أننا لم نعرض لما أصاب قنـوات الريّ والأنهر الصغيـرة التي تُعدّ بـالآلاف والتي حملت في الغالب أسماء محتفريها ، وذلك من إهمال وطمس وخراب ، بسبب شبه اتّصال المعارك ، والتعطّل الكبير في الأراضي ، وارتباك الملاحة النهرية ، دعكَ من أننا لم نتكلم على التجـارة التي حلّت بها ضـربة مـوجعة قـاصمه . وقضيـة الريّ ذات شقّين : فمن جهة هناك إهمال واندثار لبعض الأنهار المحتفَرَة بسبب الترك وكرور الزمن ، ومن جهة أخـرى هناك أنهار تمّ ردمهـا لأسباب ثـأرية أو عسكرية . مثال ذلك أن الموفّق استولى على مدينة « المنصورة » ، وهي إحـدى المدن التي استحدثتهـا ثورة الـزَّنج ، بـالإضافـة إلى « المختارة » العـاصمة التي شيّدها صاحب الزَّنج ، و« المنيعة » التي بناها سليمان بن موسى الشعراني على نهر بـراطق بسوق الخميس[٤٨]. وقـد ابتنى سليمان بن جـامـع ، أحـد القـادة المـرموقـين للثورة ، « المنصـورة » بطهِيثـا ، وحصّنهـا بخمسـة خنـادق وخمسـة

(٤٦) التنوخي : ج٨ ص١٥٥ .
(٤٧) ابن منظور : لسان العرب ، م٥ ص١٣٧ .
(٤٨) الطبري : ج٩ ص٥٦٥ ، ٥٦٧ .

أسوار[٤٩]. ولكن عندما سقطت في أيدي الموفّق سنة ٢٦٧هـ أمر طبعاً بهدم جميع الاستحكامات والموانع لمدينة المنصورة، ولكنه أيضاً « ردم خنادقها وأنهارها »[٥٠]. فنظام الريّ كان في مد وجزر، ثم إنه في رأينا تحوّل عن غايته الزراعية الى غاية عسكرية وفاصل قتالي. بدليل أن صاحب الزَّنج عندما نزل البطيحة « شقّ حوله الأنهار وتحصّن »[٥١].

تواريخ تحتاج إلى ضبط

يذكر بوبوفيتش أن الثورة دامت أربع عشرة سنة[٥٢]، ربما تعويلاً منه على التقويم الميلادي. من الشائع في المصادر التاريخية أن ثورة الزَّنج دامت قرابة خمس عشرة سنة، أو على نحو دقيق، وحسب التقويم الهجري، أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام[٥٣]. وينفرد ابن تَغْري بَرْدي بذكر عشرة أيام عوض الستة[٥٤]، في حين لا يأتي المسعودي ومؤلف مجهول على ذكر الأيام[٥٥]. وذلك أن خروج صاحب الزَّنج في البصرة[٥٦] كان يوم الأربعاء لأربع بقين من رمضان سنة ٢٥٥هـ[٥٧]، أو كما ينصّ البِيْروني في السادس

(٤٩) الطبري : ج٩ ص٥٧٠ ، ٥٧٣ .
(٥٠) ابن كثير : ج١١ ص٤٠ و ٤١ .
(٥١) ابن العماد : ج٢ ص١٣٩ .
(٥٢) Popovic: p. 181.
(٥٣) الطبري : ج٩ ص٦٦٣ ــ ابن الأثير : م٧ ص٤٠٥ ــ أبو الفداء : ج٣ ص٦٧ ــ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج١ ص٢٤٠ ــ ابن كثير : ج١١ ص٤٤ ــ ابن عنبة : ص٢٩٢ .
(٥٤) النجوم الزاهرة ، ج٣ ص٤٨ .
(٥٥) التنبيه والإشراف ، ص٣١٩ ــ العيون والحدائق ، ج٤ ، ق ١ ، ص١٤ .
(٥٦) جاء لدى ابن عِنَبة في « عُمدة الطالب » أنه خرج في الأهواز ثم جاء البصرة (ص٢٩٢)، مما هو غير دقيق ويخالف المصادر التاريخية الشائعة بين أيدينا .
(٥٧) الطبري : ج٩ ص٦٦٣ ــ ابن الأثير : م٧ ص٤٠٥ ــ ابن كثير : ج١١ ص٤٤ .

والعشرين من رمضان[٥٨]. وإنْ كان الطّبري وابن الأثير يوردان في موضعين آخرين من تاريخيهما أن خروج صاحب الزَّنج كان في شوّال سنة ٢٥٥هـ[٥٩]، أو في النصف منه[٦٠]! أما مقتل صاحب الزَّنج فهو يوم السبت لليلتين خلتا من صَفَر سنة ٢٧٠هـ[٦١].

ولم نجد، حسب علمنا، من خالف التواريخ الشائعة سوى الحِمْيَري، فهو يذكر مثلاً أن البصرة سقطت في أيدي الزَّنج في شوال ٢٥٨هـ، في حين أن التاريخ الوارد لدى الطّبري هو شوّال ٢٥٧هـ[٦٢]. كما يذكر، نقلاً عن تاريخ محمد بن سهل حول صاحب الزَّنج، وهو ضائع مع الأسف، أن مقتله كان سنة ٢٧١هـ، وأن مدة ثورته بلغت ست عشرة سنة[٦٣]. كذلك فإن ابن عِنَبة أيضاً ينصّ على أن مقتل صاحب الزَّنج كان في شهر صَفَر ٢٧٣هـ، وهذا وهم مؤكد لأنه يذكر، كما أوردنا سابقاً، أن مدة ثورة الزَّنج كانت أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام[٦٤].

عدد ضحايا الثورة

ويأتي بوبوفيتش على إيراد عدد الذين ذهبوا ضحية أحداث الثورة فيذكر أن التقديرات تتراوح بين نصف مليون ومليونين ونصف[٦٥]. غير أن هذا الرقم

(٥٨) الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص٣٣٢.

(٥٩) الكامل في التاريخ، م٧ ص٢٠٥.

(٦٠) الطبري: ج٩ ص٤١٠ ــ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٣١٩ ــ ابن كثير: ج١١ ص١٨.

(٦١) الطبري: ج٩ ص٦٥٨ و ٦٥٩ ــ ابن الأثير: م٧ ص٤٠٥ ــ ابن كثير: ج١١ ص٤٤.

(٦٢) تاريخ الطبري، ج٩ ص٤٨١ ـ ٤٨٧.

(٦٣) الحِمْيَري: الرّوض المِعْطار في خبر الأقطار، ص١٠٨.

(٦٤) عمدة الطالب، ص٢٩٢.

(٦٥) Popovic: p. 181.

التقديري الأخير الذي يسوقه بوبوفيتش لا يخلو من غلوّ كبير . فمن الصحيح أننا لا يمكن أن نقطع بأيّ رقم ثابت أو ترجيحي ، نظراً لأن وسائل العصر الإدارية والتنظيمية لم تكن في مستوى أداء هذ المهمة . كما أنه يخالجنا أن أعوان السلطة العباسية ومؤرخيها الرسميين كانوا ميّالين الى تضخيم عدد الضحايا ، تنديداً بالثورة ولصبغها بالدماء المسفوحة والأرواح المزهقة ، مع تجاهل تام طبعاً لما أقدمت عليه الثورة المضادة من ارتكابات وفظائع ، ولكن الأمر أن بوبوفيتش ، ، مع إقراره بأن الأرقام الواردة في المصادر مبالَغٌ فيها ، باعتبار أنه يأتي بعدها على ملاحظة سلفستر دو ساسي حول هذه المسألة ، غير أنه يطرح رقماً أقصى للقتلى ليس رائجاً في مصادرنا المبذولة ، باستثناء ابن الطِّقْطَقى الذي يورد رقم المليونين ونصف(٦٦) .

يقول بوبوفيتش إن التقديرات تصل بعدد الضحايا إلى مليونين ونصف من البشر، من غير أن يشفع هذا الإحصاء بمصادر توثيقية، في حين أننا لو جُلْنا في نظرة فاحصة عَبْر بعض المصادر لوجدنا أنها ترتفع بعدد القتلى ، وَفْق رواية الصُّولي ، إلى مليون ونصف فقط من الشيوخ والشباب والذكور والإناث(٦٧) . أليس من الأجدى أن نقول ، كما نلمح أحياناً في ثنايا مصادرنا ، عندما تعرض لأمر الإحصاءات في الموضوعات الحربية ، من أنه هلك في ثورة الزِّنج خلق عظيم لا يُحْصَوْن ! أو كما جاء عند المسعودي الذي يذهب أن ضحايا ثورة الزِّنج من الطرفين رجالاً ونساء وصبياناً هم في عِداد المليون ، وسواء حصل ذلك من طريق القتلِ بالسيف أو بواسطة التحريق أو بسبب الغرق أو الجوع . ثم يقول معلّقاً : « وأكثرهم يرى أن ذلك لا يحيط به الإحصاء ، ولا

(٦٦) ابن الطِّقْطَقى : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص٢٥١ .

(٦٧) الحصْري : زَهر الآداب ، ج١ ص٢٨٨ ــ الحصْري : جمع الجواهر ، في المُلَح والنّوادر ، ص١٩٠ ــ ابن تغري بردي : ج٣ ص٤٨ ــ السيوطي : ص٣٦٤ ــ ابن العماد : ج٢ ص١٥٦ .

يحصره العدد كثرة وعظماً »[٦٨].

إن هناك مثالاً آخر بليغ الدلالة على ما ذهبنا إليه في موضوع المبالغة والتضخيم وإطلاق الخيال الجموح في تعداد الضحايا ، وذلك عندما نتناول بالفحص عدد قتلى مجزرة البصرة . جاء في بعض المصادر أنه قُتل في مدينة البصرة بعد اقتحام الزَّنج ثلاثمائة ألف إنسان في يوم واحد[٦٩]. وصاحب العقل السليم يستفظع الأمر ويستبعده قطعاً ، لأن الوقت المادي ليوم واحد غير كافٍ من الناحية العملية لتصفية هذ العدد الضخم ، دعكَ من أن عدد سكان البصرة قد لا يحتمل عهدذاك هذا الرقم التصفوي ! ولكن ابن العِماد نفسه الذي أتى على الرقم الخيالي لضحايا البصرة يذكر في موضع آخر متقدم من كتابه « شَذَرات الذهب » أن عدد قتلى مذبحة البصرة هو اثنا عشر ألف قتيل[٧٠]. ولسنا ندافع عن هذا الرقم أو ذاك للضحايا ، لكن المنطق يقودنا تلقائياً الى تبنّي الرقم الثاني .

ويسعفنا الذّهبي في هذا الموقف ، إذ إنه يذكر : « ويقال إنهم قتلوا بها اثني عشر ألفاً » . ولكننا نأخذ بتعبير « ويقال » مأخذ التفهّم ، لأن الذّهبي يأتي في تاريخه على عبارات أخرى تضيء هذا الرقم وتسوّغه وتمنطقه . يقول الذّهبي عن الزَّنج : « وفتكوا وفعلوا بالأهواز والأُبُلّة أكثر مما فعلوا بالبصرة » . « وقتلوا بالأبلة نحواً من ثلاثين ألفاً »[٧١]. وبهذا يصبح رقم الثلاثمائة ألف موضوعاً أو مخترعاً لخدمة أغراض السلطة أو لمآرب أخرى ، ونحن تعنينا الحقيقة التاريخية وهي مُبتغانا ومُرتجانا .

(٦٨) التنبيه والإشراف، ص٣١٩.
(٦٩) ابن تغري بردي : ج٣ ص٤٨ ــ السيوطي : ص٣٦٤ ــ ابن العماد: ج٢ ص١٥٦ .
(٧٠) ابن العماد: ج٢ ص١٣٦ .
(٧١) الذّهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوطة دار الكتب المصرية ، رقم ٤٢ تاريخ ، م١٤ ورقة ٥ (أ) و (ب) .

المصادر والمراجع للدراسة النقدية

١ ـ اليَعْقُوبي (ت ٢٨٤هـ) : تاريخ اليَعْقوبي (مجلدان) ، دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦٠ .

٢ ـ الطَّبَري (ت ٣١٠هـ) : تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف بتاريخ الطّبري (١١ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سلسلة « ذخائر العرب » (٣٠) ، دار المعارف بمصر ٦٠ ـ ١٩٦٩ ، ١٩٧٧ .

٣ ـ المسعودي (ت ٣٤٥هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر (٧ أجزاء) ، طبعة بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي ، عُني بتنقيحها وتصحيحها ووضع جزءين من الفهارس العامة : شارل پلاّ ، منشورات الجامعة اللبنانية ، قسم الدراسات التاريخية (١١) ، بيروت ٦٦ ـ ١٩٧٩ .

٤ ـ المسعودي : التنبيه والإشراف ، تحقيق : عبدالله إسماعيل الصّاوي ، القاهرة ١٩٣٨ .

٥ ـ الأزهري (ت ٣٧٠هـ) : تهذيب اللغة (١٥ جزءاً) ، سلسلة « تراثنا » ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ٦٤ ـ ١٩٦٧ .

٦ ـ التَّنُوخي (ت ٣٨٤هـ) : نِشْوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (٨ أجزاء) ، تحقيق : عبّود الشالجي ، مطابع دار صادر ، بيروت ٧١ ـ ١٩٧٣ .

٧ ـ الحُصْري (ت ٤١٣هـ) : زَهْر الآداب وثمر الألباب (جزءان) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٣ .
٨ ـ البِيْروني (ت ٤٤٠هـ) : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق : إدوار ساشو ، ليبزيغ ١٩٢٣ .
٩ ـ هلال الصّابي (ت ٤٤٨هـ) : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق : أمدروز ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٤ .
١٠ ـ مؤلف مجهول (من القرن الخامس الهجري (؟)) : العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، (ج٤ (٢٥٦ ـ ٣٥٠هـ) ، قسمان)، تحقيق : عمر السّعيدي ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ٧٢ ـ ١٩٧٣ .
١١ ـ ابن الجَوْزي (ت ٥٩٧هـ) : المنتَظَم في تاريخ الملوك والأمم (ج٥ ، ق ٢ ـ ج١٠) ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ٥٧ ـ ١٣٥٩هـ .
١٢ ـ ياقوت (ت ٦٢٦هـ) : معجم البلدان (٥ مجلدات) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (؟).
١٣ ـ ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ (١٣ مجلداً) ، دار صادر ـ دار بيروت ٦٥ ـ ١٩٦٧ .
١٤ ـ ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ) : شرح نهج البلاغة (٢٠ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ٥٩ ـ ١٩٦٤ .
١٥ ـ ابن الطِّقْطَقى (ت ٧٠٩هـ) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦ .
١٦ ـ ابن منظور (ت ٧١١هـ) : لسان العرب (١٥ مجلداً) ، دار صادر ، بيروت (؟).

١٧ ـ أبـو الفداء (ت ٧٣٢هـ) : المختصر في أخبـار البشر (٧ أجزاء) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت (؟).

١٨ ـ الذّهبي (ت ٧٤٨هـ) : سِيَر أعلام النبلاء (١٧ جزءاً حتى تاريخه) ، أشـرف على تحقيقـه : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الـرسـالـة ، بيـروت ٨١ - ١٩٨٣ .

١٩ ـ الـذّهبي : تاريـخ الإسلام وطبقـات المشاهـير والأعلام ، مخـطوطـة دار الكتب المصرية ، رقم ٤٢ تـاريخ ، م١٤ . وتـاريخ نسخهـا يعود إلى القرن الثامن الهجري ، وذلك عن نسخة المؤلف .

٢٠ ـ ابن الـوردي (ت ٧٤٩هـ) : تاريـخ ابن الوردي (جـزءان) ، جمعيـة المعارف ، القاهرة ١٩٦٨ .

٢١ ـ الصَّفَـدي (ت ٧٦٤هـ) : الـوافي بـالـوفيـات ، سلسلة « النشـرات الإسـلامية » (٦) ، تصـدرهـا جمعيـة المستشـرقـين الألمـانيـة ، بيـروت ٤٩ - ١٩٨٤ .

٢٢ ـ ابن كثـير (ت ٧٧٤هـ) : البدايـة والنهايـة في التاريـخ (١٤ جزءاً) ، المطبعة السلفية ، مطبعة السعادة ، ومكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٣٢ .

٢٣ ـ ابن خَلْدون (ت ٨٠٨هـ) : كتاب العِبَر وديوان المبتدا والخبـر المعروف بتـاريـخ ابن خلدون (٧ مجلدات) ، دار الكتـاب اللبنـاني ، بيـروت ٥٦ - ١٩٥٩ .

٢٤ ـ ابن عِنَبـة (ت ٨٢٨هـ) : عُمدة الـطالب في أنسـاب آل أبي طـالب ، بـاعتنـاء : محمـد حسن آل الـطالقـاني ، ط٢ ، منشـورات المـطبعـة الحيدرية ، النجف ١٩٦١ .

٢٥ ـ ابن تَغْري بَرْدي (ت ٨٧٤هـ) : النجـوم الـزاهـرة في ملوك مصر والقـاهرة (١٦ جـزءاً) ، سلسلة « تراثنـا » ، الهيئـة المصـريـة العـامـة للكتاب ٦٣ - ١٩٧٢ .

٢٦ ـ السُّيُوطي (ت ٩١١هـ) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط٢ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٩ .

٢٧ ـ ابن العِماد (ت ١٠٨٩هـ) : شَذَرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب (٨ أجزاء) ، مكتبة القُدسي ، القاهرة ١٣٥٠هـ .

٢٨ ـ Theodore Nöldeke: Sketches from Eastern History, Khayats, Beirut 1963 (reprinted after 1892 edition).

٢٩ ـ فيصل السّامر : ثورة الزَّنج ، دار القارىء ، بغداد ١٩٥٤ .

٣٠ ـ أحمد عُلَبي : ثورة الزَّنج ، وقائدها عليّ بن محمد ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١ .

٣١ ـ A. Popovic: «Quelques Renseignements Inédits Concernant «Le Maître des Zang» Ali b. Muhammad», Revue «Arabica» t. 12, fascicule 2 (1965), p.p. 175-187.

٣٢ ـ عبدالجبّار ناجي : « صاحب الزَّنج الثائر الشاعر ، مع تحقيق نص الصّفدي في ثورة الزَّنج »، مجلة « المورد » (بغداد) م١ ، ع ٣ و ٤ (١٩٧٢) ، ص١١ - ٢٣ .

٣٣ ـ أحمد عُلَبي : الإسلام والمنهج التاريخي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٥ .

٣٤ ـ Alexandre Popovic: La Révolte des Esclaves en Irak au IIIe/IXe siècle, Bibliothèque d'Etudes Islamiques (6), Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris 1976.

القسم الرابع

أسود مضيئة في الجاهلية

الفصل السابع

عَنترة وعُقْدة اللون

لـو أن أحدنـا أكبّ على المصـادر مستغرقـاً في البحث عن شخصية طـالمـا شغلت خواطر البيئات الشعبية ، وما تزال ، عنينا بها « عنترة الفوارس »، لخرج بعد جهد وقـد لملم قَسَمات إنْ هـو حاول أن يجمعهـا ، بحيث تستوي إنسـاناً سويّاً ، لأنكر عندها فعلته ولوسوست في نفسه الشكوك ! فعنـتر الأسطورة قـد طغى على شخص صاحبه الأصيل عنترة التاريخ ، بحيث إننا لو جمعنا الطرفين لجهِلَ أحدهما شخص الآخر وعقد جبينه دَهِشاً !

« كر وأنت حر »

لن نتحـدث الآن عن ذلـك الفـارس الأفلح الـذي مـلأ البِيْـد بحكـايـة مكرماته وفِعاله ومعامعه ، بحيث صار حديث السُّمّار ورفيق لياليهم ، بل إننـا سنجنـح إلى استقـراء معـالم هـذه الشخصيـة بنَـواتهـا الأصليـة « التـاريخيـة » وبفضـائلهـا الكـريمـة التي أحبّهـا النبيّ ، حتى أنـه ، عـلى كـرهـه للجـاهليـة والجاهليين ، قال بعد أن أنشد بيت عنترة :

ولقـد أبيتُ على الـطوى وأظلّه   حتى أنـال بـه كـريم المـأكـلِ

« ما وُصِف لي أعرابي قطُّ فأحببتُ أن أراه إلّا عنترةَ » .

لم يكن عنترة بن شدّاد « ابن الأطايب » نَسَباً ، فهو لم يكن من نسل « سُمَيّة » ــ وقيل : سُهَيّة ــ زوجة أبيه ، فقد دلف الى دنيا الوجود من رَحِم أَمَة حبشيّة تدعى « زبيبة » ، سباها أبوه في إحدى غاراته . وكان من نكد الدهر على هذا الفتى أن جاء ، شأن أمّه ، أسود البَشَرة ، فكيف يسامحه الناس وقد خيّم السواد على عقولهم البدوية وانعقدت العنصرية في نفوسهم ؟ فكان أن ساموه الخسف ، وعيّروه ، وجعلوه هدفاً لسخريتهم . وصرفه أبوه إلى رعاية الإبل ، بحيث يحسن الحِلاب والصرَّ ، غير مكترث به ، ولا معترف بأبوّته له . فأمه في التقسيم الطبقي هي في المرتبة الدنيا ، فهي ليست حرة ، ولا سبيّة موقوفة على رجل واحد ويقرّ لها المجتمع ويعترف بأبنائها ، وإنما هي أَمَة . والأَمَة في ذاك الزمن لم تكن وقفاً على رجل واحد دون غيره ، فهي بالتالي مَتَاع مشاع ، لأن سيّدها قد يستخدمها في مهنة البِغاء لتحصيل المال ! ومن هنا ندرك ، على المستوى الاجتماعي ، نكوص والد عنترة عن الاعتراف به بِيُسر . فقد نفاه شدّاد أولاً واستعبده ، ثم اضطر على مضض الى الاعتراف به وادّعائه وإلحاقه بنسبه ، على عادة عرب الجاهلية في الاعتراف بأبناء الإماء إذا ظهرت النجابة عليهم وإلاّ ظلوا في قيود العبودية . وقد كان لأم عنترة ، زَبيبة ، أولاد عبيد من غير صُلْب شدّاد .

وإذا كان عنترة (حوالى ٥٢٥ ـ ٦١٥ م ؟) قد عاكسه الزمن بمجتمع بدويّ مغلق العقل والنفس ، فإن هذا الحشد البشريّ إيّاه كان يعتمد قوة الساعد شريعة له . وإن الروايات التاريخية التي وصلتنا عن عنترة تؤكد بنبرة خاصة على شجاعة هذا الجاهلي وفروسيته . وكانت هذه الفروسية المجال الحيوي الذي أظهر فيه عنترة نجابته ومضاء عزيمته وبطش صارمه ، فأعتقه والده ، بخاصة وأن قبيلة عَبْس كانت على خصام دائم مع بني ذُبْيان ، وبينهما نشبت « حرب السِّباق » أو « داحِس والغَبْراء » ، وقد أبلى عنترة خلالها بلاء

مشهوداً . فصار سيد حومة القتال وأعتق رَقَبته بساعده ، إذ استنجدت به قبيلته عند الشدة ، فاستنكف في البداية واعتزل متعللاً بأنه في نظرهم عبد ، والعبد ليس له نصيب في الغنيمة سوى النصف ، فقال له أبوه : « كُر وأنت حر » .

وهذه الشجاعة لدى عنترة تتبدى في معلّقته عَبْرَ نَفَس ملحميّ يعوّل على الوصف دون القصّ ، واللمحة الخاطفة دون الإطالة والتفصيل . فما يكاد عنترة يشرع في الوصف حتى يقطعه ، وهو ينتقل من جزء إلى آخر في اللوحة نفسها دون تمهيد . وهذا التفكك الذي لحق بالوحدة الفنية البنائية أضعف من الأثر الملحمي لشعر عنترة ، وإنْ كانت الوحدة الشعورية متوافرة تقوم بدور اللُّحمة . أضف الى ذلك أن الذاتية الجاهلية لا تتوارى بل هي الطابَع الغالب على أبيات المعلقة ، فعنترة لا ينفك يقول :

وحليلِ غانيةٍ تركتُ مُجدّلاً   تمكو فريصته كشِدْق الأعلمِ . . .
جادت له كفّي بعاجل طعنةٍ   بمثقّف صَدْقِ الكُعُوب مُقوَّم
فشككت بالرُّمح الأصمّ ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرّم . . .
فطعنته بالرّمح ثم علوته   بمهنّد صافي الحديدة مِخْذم .

ولقد ارتفع الشاعر في تعاطفه مع جواده الى قمّة وجدانية رائعة . إن الجواد يشكو ، على نحو حنون ، من آلامه وجراحه ودمائه النازفة لكأنه يخجل من الشكوى ويخشى إحراج فارسه ، وهو في المأزق الصعب،وقد أُلِف منه عندها الشدة والهول . لقد غدا لجواد عنترة حضور إنساني ، ولا عجب أن يستغل الرواة هذه الناحية في « سيرة عنتر » لجمالها الفني :

فازورّ من وقع القَنا بلَبَانهِ   وشكا إليّ بعَبْرة وتحمحُمِ
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مُكلّمي .

الفارس الشاحب الناحل

هـذا المحـارب الضـروس لم يكن، كـما شـاعت لـه الأسـطورة ، عـريض المنكبين ، متورّد الخدين ، جَهْم القَسَمات كأنه ليـل مدلهمّ . فـإن شِعر عنتـرة يعطينا صورة رقيقة ، فيهـا الشفوف والإنسـانية . فعنتـرة كان نحيـل الجسم ، بحيث بدت العروق في ظاهر كفّه . وكان أيضاً شاحب اللون كالمُنْصُل ، شأنه في هذا شأن معظم البدو على ما نعتقد . ومع أن عنتـرة كان من طـلّاب الهوى إلا أنه لم « يتأنّق » ، ولم يسعَ للظهور أمام ابنة عمه التي شُغف بها بلباس الفتى المتطيّب المصفَّف الشَّعر . فهو يتسربل بسربال بالٍ ، ويـظل متبذّل الهنـدام ، مشعّث الهام . إنه رجـل المعارك يسعى إلى غمـرات السيوف اللوامـع . وهذه الملامح أثبتها عنترة لنفسه ، فهو قد ترجم حاله حين قال من قصيدة :

عَجِبتْ عُبيلةُ من فتىً متبـذِّلٍ — عاري الأشاجعِ شاحبٍ كالمُنْصُلِ
شَعْثِ المفـارِقِ مُنْهَجٍ سِـربالُـهُ — لم يَـدّهِن حَـوْلاً ولم يتـرجـلِ
لا يكتسي إلا الحديدَ إذا اكتسى — وكـذاك كـلُّ مغـاورٍ مُستبسـلِ
قد طالمـا لَبِسَ الحديـدَ ، فإنمـا — صـدأُ الحديـدِ بجلدِهِ لم يُغْسَـلِ
فتضاحكتْ عَجَباً وقالت: يا فتىً — لا خـيرَ فيك ، كـأنها لم تحفِـلِ
فعجبتُ منهـا كيف زلّت عينُهـا — عن ماجدٍ طَلْقِ اليدينِ شمردَل . . .
يا عبلَ كم من غمـرةٍ باشـرتُها — بالنّفسِ ما كادت لعمركِ تنجلي
فيها لوامعُ لو شهِـدْتِ زُهاءَهـا — لسلوتِ بعـد تخضُّبٍ وتكحُّـلِ
أما تَرَيْني قـد نَحَلْتُ ومَنْ يكن — غرضاً لأطرافِ الأسنّةِ ينحَلِ .

« تكتيك » عنترة الحربي

تحاول السيرة العنترية أن تجمع الفضائل كلها في شخص صاحبها ، ولكن الروايات التاريخية التي وصلتنا تؤكد بشكل خاص على بسالة هذا الجاهلي الذي

عاش معظم القرن السادس الميلادي وتوفي في مطالع السابع . فعنترة ، كما يُروى عن عمرو بن معديْكَرِب ، « قليل الكبوة ، شديد الجَلَب » . والرواية التي أوردها عمر بن شبَّة توضح بجلاء مزيّة عنترة بين قومه العبسيين . قال صاحب « الجمهرة » :

«قال عمر بن الخطاب للحُطَيئة : كيف كنتم في حربكم ؟

قال : كنّا ألف فارس حازم .

قال : وكيف يكون ذلك ؟

قال : كان قيس بن زهير فينا وكان حازماً ، فكنا لا نعصيه . وكان فارسنا عنترة ، فكنّا نحمِل إذا حمل ونُحجِم إذا أحجم . وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأي ، فكنّا نستشيره ولا نخالفه . وكان فينا عُروة بن الورد ، فكنّا نأتمّ بشعره . فكنّا كما وصفت لك .

فقال عمر : صدقتَ » .

هذه الرواية ترشح بغير معنى في صالح فارسنا الصِّنديد . ففيها اعتراف صريح بأن عنترة فرد من أفراد القبيلة ، أي أنه حر وليس عبداً . وفيها أيضاً أن عنترة فارس بني عبس تُغير إذا أشار ، وتنكص إذا أمر . ومَنْ يحمل ريادة الحرب في مجتمع بدويّ لا يستهان بشأنه ، فالرياسة ليست وراثية وإنما هي لكل ضرغام عِتْريس نافذ القول واليد . ويُذكر عنترة ، في الرواية المتقدمة ، باسمه مفرداً ، في حين يُذكر الباقون مع تعريف آبائهم . فاسم عنترة غدا لشهرته علماً على الفروسية ، ولربما صحّ الاعتقاد أن هذا لقبه لا اسمه الذي قد يكون أمسى بعدها منسيّاً ، وكم من كبير في العربية غلب لقبه على اسمه . وإذا ما تبصّرنا بواقع الفروسية وجلالها في المجتمع الجاهلي أدركنا الطاقة الموحية التي شُحنت بها كلمة « فارسنا » ، وعلمنا المكانة التي بلغها عنترة بين

قـومه ، وهم منْ هم في دنيـا الحـرب والشكيمـة بحيث عُـدّوا إحـدى جمـرات العرب ، لأنهم كانوا بسبب مِنْعتهم في غنى عن محالفة غيرهم من القبائل .

وإذا كان العبسيّون قد مَشَوْا على خطى فـارسهم عنترة فكـانوا يحملون إذا حمل ويحجمون إذا أحجم ، لئن فعلوا ذلك لقد أصابوا ، لأن عنتـرة كان يتّبـع خطة حربية و « تكتيكاً » بارعاً .

وتبدو خطوط هذا التكتيك من قول جاء على لسان الهيثم بن عديّ :

« قيل لعنترة : أنت أشجع العرب وأشدّها ؟

قال : لا .

قيل : فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟

قـال : كنت أُقْـدِمُ إذا رأيت الإقــدام عزماً وأُحجِمُ إذا رأيت الإحجـام حـزماً ، ولا أدخـل إلا موضعـاً أرى لي منه مخـرجـاً . وكنت أعتمـد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله » .

ولقد تعددت ألقـاب عنترة . فهـو « عنترة الفلحـاء » ، لأنه كـان مشقوق الشفـة السفلى أو كلتيهـما . وكُنّي بـ « أبي المغلِّس » ، لأن الغَلَس كان شـاهـداً على غزواته وغاراته ، وهو الذي استنقذ حريته بكدّ ساعـده وفرض نفسـه على قبيلتـه ، فتحوّل من راعٍ للغنم الى فـارس ذي صولـة . وعنترة ، مُعجميـاً ، واحـدة الذُّبـاب الأزرق ، غير أن فـارسنـا كتب ببسـالتـه حيـاة جـديـدة لهـذه الكلمة ، فصارت العنترة هي الشجاعـة في الحرب . ولقـد عدّوه من « أغـربة العرب » لسواد بَشَرته ، بيد أن عنترة خيّب منهم الـظنون إذ أرادوه غُراباً فكان صقر بني عبس .

ولا يداخلنا ريب أن سواد عنترة أقضّ مضجعه ونغّص عيشه ، و « سوّد » صفحته أمام معذّبته عبلة . فهو يحمل قلباً رقيقاً أبيض ، ولكن بَشَرته سوداء . وهـذا يكفي ، حتى يـومنـا هـذا ، ليسمّيـه النـاس « عبـداً » . فتعبيـر العبيـد يُطْلَق بخاصة على السُّود ، في حين أن الشائع في المصادر القديمـة من تعابير هو: الأرقّاء والمماليك . وعلى شاكلة الأمم العتيقة عرف العرب في جاهليتهم الرقيق واستخدموه في المهن الشاقة أو الأعمال الوضيعـة . فليس أسلافنـا ، برغم مـا نقـرأ عنهم هنا وهنـاك من لفتات وأريحيّـة ، يخرجـون عن نـطاق غـرائـز البشر وأشكال نفعيتهم في مرحلة معيّنة من التاريخ . وكان في الدرك الأسفل للأرقّاء السُّودُ منهم ، فقد جنى عليهم لون بَشَرتهم بحيث شاع عنهم اسم الأغربة !

وعنترة هو ابن زَبيبة ، الأَمَة الحبشيّة السوداء . وكان وضع الإمـاء مزريـاً في البيئة العربية ، فهنّ يختلفن عن السبايا لأن هؤلاء عربيات يؤخذن قسـراً في الحروب والغارات ، في حين أن الإماء كنّ موضع بيـع وشراء . وبـالتالي فقـد خضعن لأسيادهنّ خضوعاً مذلاً شاملاً . وتـرتب على هـذا أن الإماء عملن في المهن التي تتـطلب الكدح كـالرعي والـطّهْو ، أو التـرفيـه شـأن الغنـاء فعُـرفن بالقِيان ، وتعاطي البِغاء آناء الليل بحيث دُعين المظلمات. وتكـاد تكون الأَمَـة سُبّة وعاراً ، وكانت نظرة المجتمع إليها محمّلة بـالاحتقار . ومن وصـايا الحكيم أكثم بن صيفي الى بنيه : « ولا تُفشوا سراً إلى أَمَة » .

وكـانت الإماء السـوداوات مرغـوبات مشتهـات ، وكان منهنّ القِيـان كـما ذكـرنا ، وكـان الغناء في مـطلع أمره مقصـوراً عليهنّ . وقد عقـد النُّويـري في «نهايـة الأَرَب» فصلاً خاصاً حول ما قاله الشعراء تغنّياً وتولّهاً بـالمرأة السـوداء ! عـلى أن الحبشيات منهنّ لم يكنّ يصلحن للغنـاء والرقص ، وكيف ذلـك وقـد

شاع عنهنّ الترهّل ، على أنه كانت سِمَتهنّ النعومة في الجسد واللين والضعف . وإذا ما كان عنترة بن شدّاد ابن زَبيبة ــ مع اختلاف الروايات حول « شدّاد » أهو اسم أبيه أم جدّه ــ فهو في مجيئه لهذه الدنيا لأب عربيّ حر قد خرق القاعدة الطبقية العنصرية التي كانت تهيمن على المجتمع الجاهلي في شريحته السائدة الحاكمة . فالعربي ، المعتدّ بنسبه كل الاعتداد في ذاك المجتمع الجاهلي ، لا يجيز لنفسه أن يقترن بالإماء ، وإنما بغيته الحرائر اللواتي يلدن له الأبناء الصُّرَحاء ، وليس الهُجَناء كما هو الحال مع الإماء . وأبناء السوداوات منهنّ في وضع أدنى ومنزلة أحقر .

الاسلام واللون

لسنا في معرض ما أحدث الإسلام من تبديل جذريّ هام حيال الأنساب والألوان والأجناس ، فعنترة صورة جاهلية ونحن ندرس قضية سواده في إطارها التاريخي والمجتمعي . فإذا كان قيس بن زهير ، ملك عَبْس ، قال حسداً وتحقيراً لعنترة عندما حمى قومه وقد طلبتهم بنو تميم : « واللهِ ما حمى الناس إلا ابنُ السوداء » ، فإن ثابت بن قيس بن شَمّاس الأنصاريّ عندما عيّر عمر بن الخطاب بقوله : « يا ابن السوداء » جاءت الآية الكريمة تردّ على هذا التعيير : « يا أيها الذين آمنوا ، لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » . ولن نسترسل في عرض موقف الإسلام من اللون والجنس لئلا نخرج عمّا نحن بصدده ، لكننا نقتصر على إيراد حديث للنبي جاء في سُنَن أبي داود : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحَزْن والخبيث والطيّب » . يكفي أن نذكر أن المفكرين المسلمين ، نظير الجاحظ وإخوان الصفا وابن سينا ، لم يردّوا سبب السواد عند بعض الشعوب الى مفاعيل لعنة أسطورية تعود الى نوح على ابنه حام ، بل إنهم فسّروا السّواد في

ضوء ظروف المُناخ والماء والطبيعة وحر الشمس .

وما كان لعنترة ، العبد الذي ولدته أَمَة حبشية في مجتمع بـدوي جاهـلي ، أن يطمح آنذاك الى ما تمكّن عبد حبشي أن يحرزه في الإسلام ، عنينا بِـلال بن رباح . بلال الحبشي ذو الأَبَوين الأسودين بادر أبو بكر الى تحريره ، وغدا أحد كبـار الصحـابـة ، وقـد زوّجـه النبي بعـربيـة من بني ليث الـذين اشتهـروا بالفروسية . لكن هذا الأمـر الذي صـار ممكناً في ظـلال الإسلام وهـو في أوج صفـائه ورونقـه ، ما كـان بمقـدور عنتـرة أن يستمكن منـه في كنف الجـاهليـة الجهـلاء . وقد اشتهـر بلال بـأنه مؤذّن الـرسول ، مـع العلم أنه كـان ألثغَ . وعنـدما صعـد فوق الكعبـة ليباشر الأذان بـأمر من النبي ولغـايـة تـطلّع اليهـا صاحب الرسـالة ، هاجـت قريش ومـاجت إذ كيف يجرؤ أسـود على الصعـود إليها ! فكانت هذه الحادثة هي المناسبة للحديث النبـوي الشهير الـذي ورد في بعض المصادر على الشكـل التالي : « لا فضـل لعربيّ عـلى أعجميّ ولا لأبيضَ على أسودَ إلا بالتقوى » .

انتصار على العنصرية

كـان عنتـرة أسيـراً للونـه الأسـود الـذي لا سبيـل الى تغـطيتـه أو تجـاوز « لعنته » ! فهو لم يكن « كريم الخال » على حد تعبـير المجتمع الجـاهلي ، لهـذا نجد أن واقع الأنساب ، وهو واقع « طبقيّ » عند التحليل ، كان يحفر أخاديد عذابٍ في نفس عنترة . لـذا نراه ينـدد في شعره بـالمحاربـين في القبيلة الذين لم يُغْنهم كرم أعمامهم وأخـوالهم عن التراجـع ، في حين مضى هـو متقدمـاً فكان خيراً من هؤلاء ذوي الأنساب والأمجاد :

إني امرؤ من خير عَبْسٍ منصباً — شطري ،وأحمي سائري بالمُنْصُلِ . . .
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت — أُلفيت خيـراً من مُعَمٍّ مُخْوَلِ .

على أنه كان لموضوع نَسَب عنترة وسواده الفاحم ردّة إيجابية في نفسه ، فإنه لم يتهالك ويتهافت بل نَهَدَ الى المعالي وإثبات الذات في مجتمع لا يرحم . إن مأساته كانت دافعاً ملهماً لشاعريته وفروسيته . إن مأساة عنترة صفعة في وجه التعصب العنصري الجاهلي وانتصار عليه . إن شِعره بمثابة دفاع شخصي عن قضية خاصة وعامة أيضاً ، لذا حفل بالعواطف الذاتية والمشاعر الفردية . فعنترة يحاول أن يقتلع الوهم الخاطىء والأباطيل الاجتماعية عن طريق مآثر بطولته التي أقرّ بها الجميع . لهذا كان يصف المعارك ويستخلص دوره فيها ، مظهراً تهاون أبناء قبيلته ، بخلاف ما عرفنا عن التعصب القبلي ، ومؤكداً على حاجة القوم الى سيفه وساعده . إن شعوراً مريراً لَيُبهظ روح عنترة بوطأته ، وهو يعبّر عنه خلال معلّقته في قالَب ساذَج يفرّج فيه عن السُّقْم الذي يعسّ في صدره :

لَمّا رأيتُ القوم أقبل جمعُهُمْ	يتذامرون كررت غيرَ مُذَمَّمِ . . .
ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقْمها	قيلُ الفوارس: ويكَ عنترَ أقدِمِ .

قيم المجتمع البدوي

« الهوى غلّاب » ـ كما تشدو من قلب مقروح فقيدة الغناء العربي وسيّدته ـ لذا كثيراً ما يكشف الحب ضعف الإنسان . غير أن عنترة في مجتمع يستهتر بأمثاله من العبيد السُّود كان يُعْوِزه سند يسدّ الخلل في نسبه المثلوم . وما دام هناك مراتب و« طبقات » فحكاية الأنساب واردة مستفحلة تنفخ صاحبها بالأورام والأوهام . وليقنع عبلة كان عنترة بحاجة ملحاح إلى إظهار رجولته ليرأب الخلل الحاصل في نَسَبه ، لهذا تزخَر معلّقته بالقِيَم الكبرى التي لها جلالها في مجتمع بدوي ، شأن الشجاعة والنجدة والكرم والعِفّة . . . وقد ارتفعت هذه الخصال لدى عنترة الى مستوى المثال ، وإنّ مبالغته فيها ناتجة عن

تأجج العاطفة وهَوَس العِشْق ، كما أن البيئة الجاهلية التي يقارعها فارسنا كانت ترى في هذه القيم صورتها الأخلاقية المثلى . وفي هذه المفاخر كلها كان عنترة ، كما يقول طه حسين ، فهو إذا فخر لا يفخر على صاحبته ، وإنما يفخر لها » .

إن تأكيد عنترة على بطولته يبدو تعويضاً لمركّب نقص عانى منه في حياته الأمرّين . وكأني به في تعاطيه الخمرة وبذل الدنانير لأجلها والتفاخر بها إنما ينحو منحى السادة المترفين ليحقق ذاته ، وليؤكد على تساويه بالآخرين من زعماء عَبْس ، إذ العهد بالعرب عهدذاك أنهم يفاخرون بتعاطي الشراب والمَيْسر لأنهما دليل بذل وجود :

ولقد شربتُ من المُدامة بعدما	ركد الهواجر بالمَشُوف المُعْلَمِ
بزجاجة صفراءَ ذاتِ أسِرَّةٍ	قُرنت بأزهرَ في الشِّمال مُفدَّمِ
فإذا شربتُ فإنني مستهلك	مالي وعِرضي وافر لم يُكْلَمِ
وإذا صحوت فما أقصّر عن ندىً	وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي .

لقد « تجرّأ » عنترة وأحبّ عبلة ، فأنكر عليه القوم ذلك ، ولعبوا برأس ابنة عمه مالك ، وسَعَوْا حثيثاً لتزويجها بسواه ، ثم أبعدوها عن ناظريه . وكان هذا الحب وما ابتعثه في نفس عنترة مهمازاً لفروسيته وشاعريته ، كما يتضح من معلّقته الشهيرة التي نظمها في أحوال نفسه التي اختُصرت في حبه الملوّع لعبلة . وهو يعرض خلالها مآتيه الحربية ولوحات من بطولته ليقنع محبوبته بمكانته ، وهذا النوع من الفخر ندعوه الحماسة . ويقول رواة شعره إنه كان في مجلس فتعرّض له أحد الحاضرين وسفّه لونه وأصله ، فأجابه عنترة مفاخراً بفروسيته وتاريخه الحافل . فقال له الرجل : « أنا أشعر منك » ، فردّ عليه عنترة : « ستعلم ذلك » ، فكانت المعلّقة . وفي هذا الأثر الأدبي الجميل يبدو عنترة هذا الفارس الذي يذوب رقة وعاطفة ودَفْقاً وجدانياً عندما يتحدث الى عبلة . وقد صحّ في غزله أنه الغزل الحماسيّ أو غزل الفرسان . فقائله فارس

عاشق ، وعاطفته تتميز بالصدق، فهي جيّاشة مضطرمة تنبع من نفس متألمة تنافح عن قضية نبيلة .

لعنة اللون

لا ريب أن مشكلة اللون كانت مِخْرزاً يأكل من لحم عنترة ويذكّره دائماً بوضعه الدونيّ . ولهذا كان السّواد والعبودية هاجساً يستبد بفارسنا وعُقْدة نفسية تتردد أصداؤها في روحه بلا مواربة . وكأن عنترة لا يتلجلج من ذكرها صراحة من باب الخلاص منها ، وذلك بإيراد تجلّيات بطولته التي ينبغي في نظره ، وبالتالي في نظر المجتمع البدوي الذي يقدّرها عالياً ، أن تمحو مآخذ القوم حياله . إن المختارات التي سنأتي عليها وردت في شعر عنترة المشكوك في نسبته إليه ، وهو شكّ نوافق عليه ونأخذ به ، لأن صياغتها الشعرية لا تتفق مع أسلوب عنترة الراقي وَفْق ما جاءنا في معلّقته ، كما أنها تتناول أحياناً معاني وأحداثاً لم تكن شائعة في حياة عنترة وإنما رافقت سيرته الموضوعة . ولئن أوردنا هذه الشواهد فلأنها تعبّر عن مشاعر لعنترة كان من الطبيعي والتلقائي ان تتجاوب في حناياه الطعينة .

يقول عنترة أو مَنْ وضع الشعر على لسانه ونحله إياه :

وما ردّ الأَعِنّةَ غيرُ عبدٍ ونارُ الحرب تشتعل اشتعالا .

ويقول في قصيدة أخرى من ديوانه :

وأنا الأسودُ والعبدُ الذي يقصِد الخيل إذا النَّقْع ارتفعْ
نِسبتي سيفي ورُمحي، وهما يؤنساني كلّما اشتد الفزع .

ويقول في موضع آخر وكأنه يردّ عليهم بالطريقة نفسها التي يعيّرونه بها ، وهو ــ حسب تعبيرنا الحديث ــ يرمي الكرة في مرماهم :

يَعيبـون لـوني بـالسّـواد وإنمـا　　فِعالُهُمْ بالخبث أسودُ من جِلدي .

أو كما قال ، وكأنه يردّ على الشتيمة بأخرى أشد نُكْراً :

ومَنْ قـال إني أسـودٌ ليَـعيبني　　أُريه بِفِعلي أنه أكذبُ الناسِ .

ثم إن السّواد هو صفة المِسْك الذي يتغنّى به هؤلاء الناس ، وإذا كان عنترة قد ورِث السّواد ولا حيلة له فيه فإنه يحمل تحت إهابه طُهراً وبياضاً وإنساناً ربيب الصحراء يتميز بالفضيلة والصراحة والنقاء :

لئن أكُ أسوداً فالمِسْك لوني　　وما لسواد جِلدي من دواءِ
ولكن تبعُدُ الفحشاء عني　　كبُعْد الأرض عن جوّ السماء .

لقد حسم عنترة أمره ليقطع عُقدة اللون ، وكأنها العُقدة التي يقال إن الإسكندر حلّ أمرها فانفتحت له أبواب آسيا . فقد اتخذ فارسنا من سواده نسباً يعتز به ، صنعه بساعديه عوضاً عن نسب موروث يفاخر به القوم ولا فضل لهم فيه :

لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسبٌ　　يوم النِّزال إذا ما فاتني النَّسبُ .

ومذ قدّ عنترة لنفسه هذا « النَّسب » العظيم المكتسب ، فقد نفض هاجس اللون وشِنْشِنَةَ « زَبيبة » أمه يرددونها على مسامعه ليغيظوه ويؤرّثوا الحزن في قرارة روحه :

ما ساءني لوني وإسمُ زَبيبةٍ　　إذ قصّرتْ عن همّتي أعدائي
فلئن بقيتُ لأصنعنّ عجائباً　　ولأُبْكِمَنّ بلاغةَ الفُصَحاءِ .

بين التاريخ والأسطورة

عَشِقَ عنترة عبلة ، لكنها كانت طيفاً شعرياً جميلاً غذّى أبياته بالعاطفة

والجمـال ، ولم تستحل إلى واقـع مُعـاش . وبلغ عنتـرة من الشهـرة بحيث إن إحدى نساء كِنْـدة عرضت عليـه أن تزوّجـه مَنْ يشاء من بنـاتها ، لكن فـارس البوادي كان قلبه عالقاً ، فهو يستلذ العذاب ولا سبيل معه إلى النّصح :

لو كان قلبي معي ما اخترتُ غيركمُ ولا رضيت سـواكم في الهـوى بَـدَلا
لـكـنــه راغـب في مَـنْ يــعــذّبــه فليس يقبـل لا لـومــاً ولا عَـذَلا

وتزوج بعدها عنترة بـامرأة من بُجيلة ولم يتـرك عَقِباً . وقـد مات بعـد أن عمّر وشارف التسعـين . وسواء قتله مَنْ كـان يُلقّب بالأسـد الرهيص النَّبْهـاني فرماه لأنه ساق منهم طريدة ، أو فتـك به أحـد أبناء طَيْء . لِكِبَـره وعجزه عن المقاومة ، أو اجتاحته ريحُ صيفٍ عصوف وهـو يسعى لردّ جَمَـلٍ له عنـد رجل من غَطَفان ، فإن هذا الفارس المتألق تجاوز الواقع ليمرُقَ الى رحاب الأسطورة ويتعامل مع خوارقها ، وذلك على صفحات « السيـرة » التي استلهمت بطولتـه وتسامت بها إلى حد الخيال المجنّح الهيمان .

وينبغي دائماً ، في مجال الدراسة ، أن نميّـز بين العنتـرين : عنترة التـاريخ وعنتر الأسطورة ، وإنْ كان الثاني قـد طغى على الأول وتـربّع سيـداً في رحاب الأدب الشعبي ، بحيث أنكـر بعض الباحثـين ، شأن طـه حسـين في حـديث أربعائه ، وجود شخصيته الأولى الواقعية ، إنْ هي ، في نـظرهم ، إلاّ أسطورة ومِشْجب للشعر المنحول . ولقد كان الجاحظ بفطنته سبّاقاً في كتابه « الحيوان » حيث رأى أنـه يجب تنحية الكثـير من حياة عنتـرة وشعـره لاستخـلاص عنتـرة الإنسان من شِباك الأسطورة .

ونحن نميل الى أن اسم فارسنا الحقيقي هو « عنتـرة » ، كما هـو متواتـر في المصادر . ولئن ورد هذا الاسم بدون تاء في شعـر عنترة نفسـه ، كما مـرّ بنا في شاهدين سابقين : « يدعون عنـترَ والرمـاح كأنها » ، « قيـلُ الفوارس : ويـكَ

عنترَ أقدِمِ » ، فهذا ترخيم مع إبقاء الفتح فوق حرف الراء . لأن الـراء ههنا ليست بحرف الإعراب ، فـالأجود في رأي أبي جعفـر النحّاس (ت ٣٣٨ هـ) أن تظل على ما كانت عليه . أمّا صاحب السيرة الشعبية بلا خلاف ، وكما هـو شائع في الأوساط وذائع على الألسن ، فهو « عنتر » .

المصادر والمراجع

١ ـ أبو جعفر النحّاس : شرح القصائد التسع المشهورات ، القسم الثاني ، تحقيق : أحمد خطاب ، سلسلة « كتب التراث » (٢٣) ، وزارة الإعلام ، الجمهورية العراقية ١٩٧٣ .

٢ ـ أبو عبدالله الزَّوْزَني : شرح المعلّقات السبع ، ط ٢ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٥٠ .

٣ ـ ديوان عنترة : بعناية : كرم البستاني، دار صادر ـ دار بيروت ١٩٥٨ .

٤ ـ أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ، ج٨ ص٢٣٧ ـ ٢٤٦، سلسلة « تراثنا » ، مصوّر عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٣ .

٥ ـ طه حسين : حديث الأربعاء ، « ساعة مع عنترة » ، ج١ ص١٧٨ ـ ١٨٩ ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٣٧ .

٦ ـ أديب فرحات : عنترة العَبْسي ، سلسلة « الطرائف في الأدب العربي » (١) ، منشورات المكتبة العلمية ومطبعتها ، بيروت ١٩٥٠ .

٧ ـ حسن عبدالله القرشي : فارس بني عبس ، سلسلة « مكتبة الدراسات الأدبية » ، دار المعارف بمصر ١٩٥٧ .

٨ ـ عبده بدوي : الشعراء السُّود ، وخصائصهم في الشعر العربي ، سلسلة « المكتبة العربية » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .
٩ ـ عبده بدوي : السُّود والحضارة العربية ، سلسلة « المكتبةالعربية » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .
١٠ ـ جرنوت روتّر : « هل كانت هناك مشكلة عنصرية في الإسلام ؟ » ، محاضرة ألقاها المستشرق الألماني في المركز الإسلامي ببيروت ، وذلك بتاريخ ١٠/١٠/١٩٧٩ .

فهرس الأعلام

(أ)

(*) ذكرنا أسماء العَلم بإيراد الاسم الأول ثم اسم العائلة بالتتابع ، ولم نعمد إلى قلبهما كما هو دارج في اللغات الأجنبية ، لاعتقادنا أن هذا القلب يبدو مصطنعاً وغير مستساغ عندنا . وراعينا في ترتيب الأعلام الشَّدّة عند ورودها فوق الحرف الأول من اسم العائلة بعد أل التعريف ، لأن هذا يتّفق واللفظ المنطوق . وعندما يرد اسم العَلَم في الحاشية جعلنا رقم الصفحة مرفقاً بحرف (ح) تمييزاً له من المتن. كذلك لم نأخذ في الحسبان ما سبق اسم العائلة من زيادات نحو : « ابن » ، أو « أبو » ، أو « آل » ، أو أل التعريف ، أو الكلمات الأجنبية شأن « دو » ، « دي » ، « فون » .

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ي)

فهرس المحتويات

القسم الأول
عبيدٌ وثوراتٌ وصُلْبان

القسم الثاني
قائـــدٌ وشـــاعـر

القسم الثالث
ثورة الزِّنج في كُتُب الدَّارسين

القسم الرابع
أسودُ مضيء في الجاهلية

Ahmad 'OLABĪ

La Révolte des Esclaves dans l'Histoire de l'Islam

Dār al - Ādāb
Beyrouth 1985



صدر

للدكتور أحمد عُلبي :

- ثورة الزّنج ، وقائدها عليّ بن محمد
- ابن المقفَّع ، مُصلح صرعه الظُّلم
- الإسلام والمنهج التّاريخي
- طه حُسَين ، رجل وفكر وعصر
- ثورة العَبيد في الإسلام
- تحت وِسادتي ، مقالات وحكايات وذكريات (قيد الطبع)